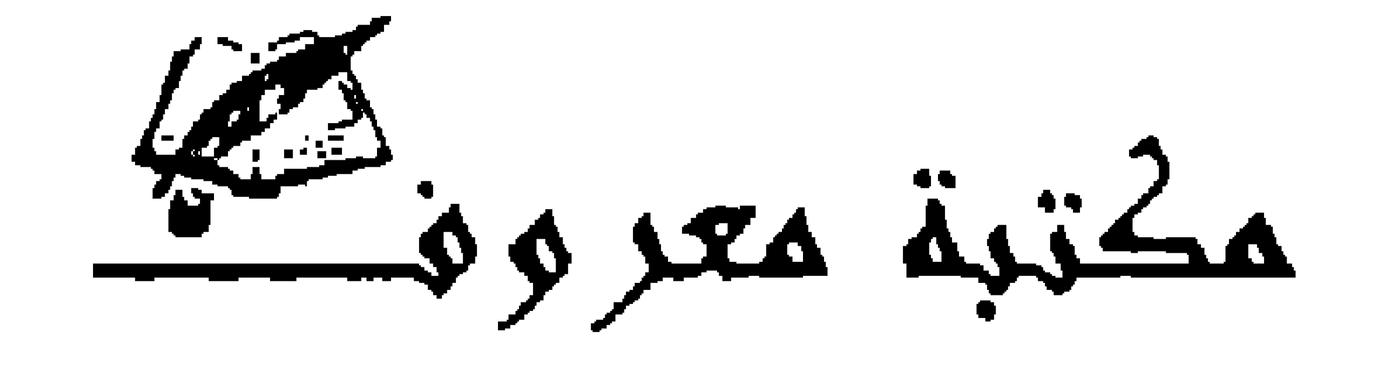

روائع شكسبير
العبرة بالخواتيم
مكتبة معروف

روائع شكسبير

العبرة بالخواتيم

حمدى السعداوى



مكتبة معروف

الإسكندرية ، ٤٨١٠٨٢٨ / ٤٨٤٦١٢٥ فاكس ٤٨٦٠٠٨٩

القاهرة ، ٢٦١١٢٢٩ ص.ب ١٢٧٠ الإسكندرية

تعريف بالكاتب

* وليم شكسبير من أعظم شعراء الأنسانية

كان مولده في شهر أبريل من عام ١٥٦٤ ببلدة ستراتفورد الأنجليزية وكان والده رجل أعمال ناجحا وكانت أمه من نبات عائلة ثرية معروفة . وتعلم شكسبير مع أخوته الأربعة فى مدرسة البلدة حيث كان يدرس اللاتينية وآداب الأنجليزية ويبدو أن شكسبير أستطاع بطريقته الخاصة أن يزود معرفته باللغة الفرنسية و كذلك الإيطالية

وفى عام ١٥٧٧ وكان عمره ١٣عاما .. أضطر شكسبير إلى ترك الدراسة والألتحاق ببعض الأعمال البسيطة كى يساعد والده فى تدبير أمور معيشة الأسرة وذلك بعد أن ألمت بالأب بعض الصعاب المالية جعلته يفقد أعماله الناجحة

وفى الثامنة عشر من عمره تزوج وليام شكسبير من أمرأه تكبره بثمان سنوات ورزق منها بثلاثة أولاد ولكنه لم يستطع التأقلم على الحياة الزوجية التى تتطلب من المرء ألتزاما وثباتا لم يجدهما وليام متوافران لديه .. فكان كثيرا ماينشب الشجار بين الزوجين ، ودفعت تلك الأزمات بشكسبير إلى

مجموعة من أصدقاء السوء .. فكان وهو فى تلك السن الصغيرة نسبيا يقترف معهم بعض الأعمال الإجرامية الصغيرة كسرقة الأرانب والغزلان من مزارع الأعيان .

وفى عام ١٥٨٥ نظم شكسبير قصيدة فى هجاء أحد الوجهاء فى بلدته .. ويبدو أن هذا الوجيه قد ضايقه بسبب تلك القصيدة ، فعزم وليام شكسبير على أن يترك ستراتفورد إلى حين ، وغادرها إلى لندن التى وصلها معدما ، بلا صنعة يحترفها أو مهنة يتقنها ، ويختلف المؤرخون فى تفاصيلها تلك الفترة الأولى من حياته فى لندن .. فمنهم من يقول أنه أمتهن حراسة خيول رواد المسرح الأثرياء والذين كانوا يتركونها خارج المسرح . ومنهم من يقول أنه عمل كخادم فى المسرح . ولكن الأرجح أنه عمل كمساعد ملقن مستعينا فى ذلك بمحصول دراسته الأدبية فى الأدب الأنجليزى ومعرفته ببعض اللغات الأجنبية .

وفى عام ١٥٩٢ تقريبا بدأ وليام شكسبير عمله ككاتب مسرحى محترم وذلك بعد أن أشتهر بين الأوساط الفنية فى لندن بأنه مراجع جيد للنصوص المسرحية ، أما أولى وثباته فى تاريخ النجاح فكانت فى عام ١٦٠٣ حين أعتلى چيمس الأول عرش أنجلترا ودعاه ليمثل فى القصر الملكى أمام الملك ورجال البلاط المحترمين .

وفى عام ١٥٩٧ عاد وليام شكسبير إلى بلدته ستراتفورد التى غادرها معدما ، وهناك أشترى بعض العقارات ومخزنين للحبوب وعاد أسمه وأسم عائلته إلى الظهور مرة أخرى ، وأستقر وليام شكسبير فتره فى بلدته يوطد

فيها مركزه ويعيد لأسم عائلته مجدها الذى ضاع سنينا طويلة ، ثم عاد إلى لندن عام ١٥٩٩ ليؤلف ويمثل العديد من المسرحيات الناجحة ، وبلغ نجاحه حدا كبيرا لدرجة أنه أستطاع أن يحصل على جزء من أرباح مسرح الكرة الأرضية الشهير وكان من أكبر مسارح أنجلترا فى هذا العهد .

وفى عام ١٦١١ أنهى شكسبير نشاطه المسرحى فى لندن بعد ما أثرى الأدب الأنجليزى بمجموعة كبيرة من الأعمال الفنية جعلته بحق أمير الأدباء فى عصره ، وفى عام ١٦١٦مات فى ستراتفورد عن عمر ٥٢ عاما تقريبا ، ودفن في بلدته التي غادرها صغيرا ولكنه عاد إليها شخصا معروفا ، ثريا تتناقل أسمه كل محافل أنجلترا الأدبية ..

ترك وليام شكسبير تراثا خالدا من الأعمال الأدبية العظيمة يمكن تلخيصها عدديا كالآتى :

١٤٠ مقطوعة شعرية

٥ قصائد طويلة

٣٧ مسرحية شعرية تتخللها بعض المواطن النثرية ..

ويقسم المؤرخون أعمال شكسبير المسرحية إلى ثلاثة أقسام حسب موضوعاتها .

- مسرحيات هزلية .. ومنها ملهاة الأفكار ، حلم ليلة صيف ، الليلة الثانية عشرة .

- مسرحيات تاريخية ومنها الملك هنرى الرابع ، الخامس ، الملك جون

– مسرحيات مأساوية .. ومنها يوليوس قيصر ، هاملت ، عطيل ، أنطونيو وكليوباترا والجدير بالذكر أن براعة شكسبير الفائقة فى تصوير الأحداث وتحليل العوامل النفسية لشخوص أبطال مسرحياته جعلت الكثير من المؤرخين والباحثين يتركون المسرحية نفسها لدراسة بعض التفاصيل التى تبدو بعيدة عن الموضوع نفسه ، فمثالا .. متى كتبت هذه المسرحية ؟ ومن من الأدباء الذين تأثر بهم شكسبير عند كتابته للمسرحية ؟

بل أن دراسات أدبية ذات قيمة عاليه جيدا كانت تجرى على بعض أبطال رواياته أمثال شايلوك التاجر اليهودى فى مسرحيته (تاجر البندقية) وعطيل القائد المغربى الأسود فى المسرحية المعروفة بنفس الأسم و .

وهكذا كان وليام شكسبير أسطورة حقيقية للأدب فى كل زمان ومكان .



الشخصيات الرئيسية

الملك . ملك فرنسا

الكونتسة : والدة برترام

برترام : كونت روسيون .

بارولس . تابع الكونت - آفاق .

هيلين : زوجة برترام .

الأرملة : أمرأة من فلورنسا .

ديانا : أبنتها .

اللورد لافيه .

أشراف - جنود - خدم وأتباع .

★★★

الفصل الأول

كان العرف السائد في الممالك الأوربية القديمة أن يوضع أبناء المتوفين القُصر من النبلاء والأشراف تحت وصاية الملك شخصيا ، وكان الملك هو الذى يتولى الإشراف على تنشئتهم وتربيتهم احتراما لذكرى آبائهم من السادة الأشراف ، وحرصا من العرش على أن يكون رجال المملكة من ذوى الأصول المحترمة النبيلة .

ولما كان الكونت روسيون مات مخلفا ابنا وحيدا هو برترام .. لقد كان لزاما على الأم .. " الكونتسة روسيون " ، أن ترضى برحيل ابنها عنها حيث سيكون تحت وصاية ملك فرنسا مسرح تلك الأحداث التى تبدأ بوداع الأم لابنها .

كان جميع الحاضرين في ملابس الحداد يستمعون إلى الأرملة النبيلة وهى تودع ابنها قائلة :

– الواقع ياولدى أننى بانتزاعك منى ، أشعر وكأنني أفقد زوجا ثانيا .

فقال برترام وهو يلثم يدها مواسيا :

– ليس من السهل على أن أتركك ، ولكننى يجب أن أطيع أمر جلالة

الملك لأننى الأن تحت وصايته الشخصية .. بل ورهن مشئيته ..

وتدخل اللورد لافيه العجوز فى الحديث محاولاً أن يطيب خاطر الأم الحزينة قائلاً :

– الواقع سيدتى أن برترام الشاب سيلقى عناية فائقة من جلالة الملك ولا تنسى أبداً أن جلالته كان يبجل الكونت الراحل و زوجته – ويحترمه فهذا أحرى اذن أن يولى جلالته ابنك كل اهتمامه الشخصى .

أجابت الكونتسه :

– أنا على يقين من هذا .. فجلالته شخص طيب كريم ، ولكن قل لى يالافيه ما هى أخبار الملك الصحية ؟ وهل شفى من مرضه العضال !؟.

أطرق لافيه برأسه وأجابها بأسى :

– لا ياسيدتى .. لقد فشل كل الأطباء فى علاجه .. حتى أنه قد فقد الأمل نهائيا فى الشفاء ..

فقالت الكونتسه بحسرة ..

– ياللخسارة ..إنه لمن المؤسف حقا أن يعجز أطباؤنا عن ابراء الملك المسكين ..

ثم أشارت إلى فتاة جالسة بجوارها هى هيلين ربيبتها ووصيفتها واستطردت قائلة :

– لقد كان لهذه الفتاة أب عظيم ، لو كان حيا ، لكان وحده القادر على جلب الشفاء العاجل لملكنا الحبيب ، فقد كان طبيبا حاذقا لايأتى الزمان

بمثله .. فسألها لافيه متعجبا .

ومن هو والد هذه الفتاة ياسيدتى ؟.

أجابته الكونتسه :

– جيرار دى ناريون ..

فصاح لافيه :

– جيرار !! لقد سمعت الملك يذكر اسمه بإعجاب كبير .

استطردت الكونتسه

– نعم .. لولا أن الموت قد اختطفه تاركا ابنته الوحيدة هيلين فى رعايتى .. دعنى أقول لك بكل ثقة لو كان حيا ما كان الملك على هذه الحالة المتردية من السقم والمرض .. ولكنها مشيئة الأقدار

كانت هيلين طوال الوقت صامتة .. فلما اثيرت ذكرى أبيها ، ترقرقت الدموع فى عينيها وحاولت جاهدة أن تمنع نفسها من البكاء .. ولاحظت الكونتسة ذلك فقالت :

– انظر يالافيه إلى هذا الملاك الجميل ..إن أخلاقها وفضائلها تفوق ذلك الوجه جمالا وأنا على يقين أن أمام هذه الفتاة مستقبلاً باهراً بفضل وفائها وذكائها وهما ماورثته عن أبيها .

فقال لافيه : انظرى ياسيدتى ، أن مديحك يجعلها تبكى ..

فقالت الكونتسه وهى تربت على ظهر هيلين :

– ابكى ياابنتى .. فالبكاء هو ما تعلن به العذراء عن معدنها الأصيل .

ويؤسفنى أن الحديث قد قادنى إلى دكر أبيك ..

فقالت هيلين بين دموعها :

اننى أبكيه حقا لأننى قد أصبحت وحيدة من بعده ، أسمع الجميع يتحدثون عنه وعن نبوغه .. وهاهو ذلك السيد يقول إن الملك نفسه قد أطراه ألا يستحق مثل هذا الرجل البكاء من أجله ؟..

فقال لافيه :

– نعم .. يستحق ولاشك ، ولكن اعلمى يا ابنتى أنه إن كان الحزن المعتدل حقا للموتى .. الا أن الحزن المفرط عدو للأحياء أيضاً ..

– صدقت يالافيه .. فالحزن هو عدو الأحياء .. وها أنا أمامك حزينة على وفاة الكونت ثم مالبث حزنى أن تجدد برحيل برترام عنى .

فقال لافيه :

– أؤكد لك ياسيدتى أن ابنك سيجد كل العناية من الملك .. والآن .. جاء وقت الرحيل .. فلتودع أمك يا سيد برترام .. وليكن وداعك سريعا لئلا تزيد من حزنها ..

فقال برترام وهو يقبل يدها :

– سيدتى .. أن ابنك فى حاجة الآن إلى دعواتك .

فقالت الكونتسة وهى تحتضنه :

– بوركت يابنى .. ولتخلف أباك خلقا وفضلاً ، كما خلفته صورة وشكلا ستصبح من رجال الملك فكن عادلا رحيما وتشبث دائما بالحق والفضيلة

أحبب الجميع ، ولا تثق إلا بالقليل ، ولا تظلم أحدا وواجه أعداءك بقوة وأحرص على أصدقائك ..أما خير ما أوصيك به فهو الصمت الذى لا يطيقه البعض أحيانا .. ولكن اعلم انه لأن تعاب على الصمت ، خير من أن تعاب على الكلام ..

ثم استدارت إلى لافيه وقالت بتوسل :

– وأنت ياسيدى إن أبنى تعوزه الخبرة . فلا تبخل بنصائحك عليه ..ولا تحجب عنه عونك إذا ما أحتاجه ..ولا رأيك السديد حين تقتضى الحاجة ..

فقال لافيه مخلصا :

–أطمئنى ياسيدتى فسأساعده بقدر ما أحبه ..

فقالت الكونتسه :

– سأصحبكما إلى الخارج ..هيا بنا .

خرج الثلاثة وبقيت هيلين وحدها .. تفكر وتقول فى نفسها .

– هم يعتقدون أن ذكرى أبى هى التى جلبت دموعى .. ولكنهم لايعلمون أن سبب بكائى الأول هو فراق برترام ، فقد محيت صورة أبى من مخيلتى وبقيت صورة برترام وحدها ، الويل لى .. كيف سأحيا وبرترام بعيد عنى ؟.. أنا أحبه مع أنه لا أمل لى فى هذا الحب .. أنا أحبه وهو لا يشعر بذلك .. اعلم أن حبى لا غاية له ولا نهاية تماما كالغزالة التى تطمع أن تقترن بالليث حتما سيقتلها ذلك الحب الجميل .. الأليم ولكنها تستعذ به وترضاه فكل ما أبغيه هو التطلع إلى محياه .. والآن زال هذا الأمل بذهابه إلى القصر ولم

يبق لى سوى صورته وذكرى هيئته .. ياالشقاء نفسى وتعب قلبى ..

وبينما هى فى هذه الحالة .. إذ دخل بارولس تابع برترام وصديقه وكانت هيلين ترى فيه شخصا كذوبا مهذارا يتظاهر بالعظمة على أنه فى حقيقته جبان لا قيمة له ..

بادر بارولس هيلين بقوله :

– سلام لك أيتها الملكة الحسناء ..

فأجابته هيلين بنفس لهجة تهكمه :

– وسلام عليك أيها الملك .

فاستطرد بارولس متجاهلا سخريتها

– أين السيد برترام ؟.

فقالت هيلين :

– لقد خرج مع سيدتى الكونتسه واللورد لافيه ..

– آه .. ذلك العجوز الثرثار .. ستكون صحبة مملة إذن .

ثم حدجها بنظرات فاحصة وقال :

– لقد اشتد عودك ياهيلين وإنى لأسألك .. هل تعتزمين أن تبقى عذراء بلا زواج ؟..

فأجابته هيلين وهى تشعر بنظراته الطامعة لها :

– قل لى ياسيد بارولس ..يقولون أن الرجال أعداء لعذرية الفتيات ..

فكيف يمكن أن تأمن الفتاة شر الرجل ؟..

فقال بارولس :

- بالابتعاد عنه !..

فقالت هيلين :

- وما قولك لو استعمل الرجل قوته ، كيف تقاومه الفتاة ؟.

أجاب بارولس وهو يبتسم :

- لا سبيل لمقاومة الرجل منا .. ثم إن احتفاظ الفتاة بعذريتها هو ضد سياسته الطبيعة وناموسها .

ثم استطرد متفلسفا :

- ألا تعلمين أن أى عذراء لا تولد إلا بعد أن تفقد أمها عذريتها !؟.

أليس هذا ربح معقول !! . أن العذرة لو فقدت مرة .. فانها تسترد عشر مرات بعدها .. يالرحمة الطبيعة بنا ..

فقالت هيلين مدركة لمغزى حديثه :

- ولكننى سأحرص على عذريتى .. حتى لو مت عذراء ..

فقال بارولس :

- أن العذراء التى تأبى الزواج مثلها مثل الرجل الذى يشنق نفسه ، لاحق لها فى الدفن فى مقابر سائر الموتى لأنها أقترفت اثما فى حق الحياة لماذا خلق الله الفتاة إذن لولا أنها تأتى بالأولاد ومنهم البنات العذراوات ؟.

إن حرص الفتاة على الاحتفاظ بعذريتها هو نوع من الأنانية المقيتة . لذا فانني أنصح أى فتاة قائلا :

اخرجي من عذريتك تخلي عنها . وستعود إليك مضاعفة .

فقالت هيلين بسخرية

- وماذا تفعل العذراء في رأيك يا حكيم - كي تفقد عذريتها كما تحب وعلى النحو الذى ترتضيه !؟ وأقصد بذلك الزواج !..

أجابها بارولس :

- إن العذرية سلعة تفقد بريقها بطول البقاء .. كلما احتفظت الفتاة بها قل قدرها وبخس ثمنها تماما كالكمثرى الذابلة التى يتردد الناس فى شرائها أو حتى تذوقها لذلك أوصيك أن تتخلص من عذريتها وهى لا تزال قابلة للبيع .

فقالت هيلين

- ولكن عذريتى لم تبلغ هذا الحد بعد .

ثم غيرت موضوع حديثها وقالت بأسى :

- اذهب ياباورلس مع سيدك إلى بلاط الملك حيث الحسناوات من كل نوع وصنف .. وستجد فيهم أنت أو سيدك ماتريد وما تبغى .

فأجابها بارولس .

- وداعا ياهيلين الصغيرة .. الجميلة .. سأفكر فيك فى كل وقت حتى وأنا فى البلاط وسط الحسناوات اللاتى أشرت إليهن

فقالت هيلين

- وداعا يابارولس لابد انك سعيد الحظ حتى تصحب سيدك وتجاوره فى قصر الملك .. ما هو كوكبك يا ترى ؟.

أجاب بارولس بفخر :

- أنا كوكبى المريخ .. إله الحرب .. فقد ولدت كى أكون جنديا عظيما ولدت فى أوجه لذا ترييننى شخصا مغوارا .

فقالت هيلين متهكمة :

- بل أظنك ولدت فى تراجعه .. لأنك تتراجع كثيرا فى أوقات الحروب وفترات الشدائد .

أجابها بارولس :

-نعم .. أنا أتراجع أحيانا ولكن تراجعى كتراجع الجيوش التى تسعى لأتخاذ المواقع الحصينة ..

هيلين :

-لا .. اننى أعتقد أن تراجعك ليس إلا بدافع الخوف وطلب السلامة .. إن شجاعتك وجبنك قد اتفقا على شئ واحد .

فقال بارولس :

- وما هو !!..

هيلين :

- على خفة القدم وسرعة الخطى .

فقال بارولس مغتاظاً :

- إن أمامى شواغل عديدة ولولا هذا لرددت عليك الرد الذى يفحمك ولكننى سأتخلق بأخلاق رجال الملك . وأقول لك بكل أدب .. وداعا ثم انحنى أمامها وخرج مسرعا ..

أما هيلين فقد بقيت وحدها مرة أخرى .وبعد طول تفكير ..تمتمت لنفسها قائلة :

- إن مرض الملك هو وسيلتى الوحيدة لبلوغ مرادى .. فلأتقدم غير خائفة من الفشل أو الإخفاق ..

★★★

إلى قصر الملك .. شد الثلاثة رحالهم .. وقبل أن يحل المساء .. كان القصر أمامهم .. وكان الحاجب يتقدمهم ليعلن لمولاه وصول اللورد لافيه ومن معه

وكان الملك فى تلك اللحظة فى قاعة عرشه مستمعا للرسل الذين اتوه بأخبار اندلاع الحرب بين مقاطعتى فلورنسا وسيينا وكلتاها حليفتان لفرنسا .. وكان الملك يقول للأشراف المجتمعين عنده :

- من يريد منك أن يشهد تلك الحرب فليذهب .

فقال أحدهم :

- ستكون هذه الحرب مكانا مناسبا لأشرافنا كى يتدربوا على فنون القتال .. إن معظمنا يحن إلى استعمال سيفه .

وفى تلك اللحظة دخل الحاجب ينحنى وهويقول :

- لقد حضر اللورد لافيه ، وهو يرغب فى لقاء سموكم .

فقال الملك .

- إدخلوه على الفور

ودخل اللورد ومعه برترام .. أما بارولس فقد بقى خارجا .

قال لافيه بعد أن أدى التحية الواجبة .. مشيرا إلى برترام :

- هذا هو الكونت دوسين أيها الملك الكريم .. الفتى برترام .

تفحص الملك الشاب الواقف أمامه مرتبكا .. ثم قال :

- أيها الفتى .. أن لك وجه أبيك .. لقد أحسن الله تصويرك وابدعه مرحبا بك فى باريس .

انحنى برترام شاكرا ، فى حين استطرد الملك :

- كنت أنا وأبوك صديقين حميمين .وقد كان من أشجع الرجال الذين عرفتهم وخضت معهم المعارك .. ولكن .. هاهى الشيخوخة قد تسللت إلينا فأودت بحياته وتركتنى سقيما عليلا .. آه .. لقد كان والدك شخصية فذة ! كان فى شبابه شخصا كريما متواضعا كما كان شريفا منضبطا .. يجالس من هم دونه ويعاملهم كأنداد له .. فيجعلهم هذا فخورين بتواضعه ، ولا تظن أنه كان شخصا كئيبا متحفظا ، بل كان ساخرا يميل إلى الدعابة والمفاكهة ولكن بحساب ، ليتك مثله ياولدى ، ليتك ورثت فضائله ومكارمه كما ورثت منه الوجه الجميل والقوام الممشوق .

فقال برترام :

ـ إن طيب ذكراه يا مولاى فى خاطرى ،وأنه ليشرفنى أن اسمع منك كل هذا المديح له .. فكلامك هو خير دليل على صفاته الطيبة .. وإنه عندى أصدق وأبلغ من الكلمات المكتوبة على شاهد قبره.

سرح الملك بفكره متذكرا الماضى الجميل .. وقال :

– كان يقول لى : لا أود أن تطول حياتى بعد أن تخبو جذوة العمر وينفذ الزيت من السراج حتى لا يسخر منى الشباب الذين يحتقرون كل شئ قديم هذا ما كان يتمناه .. وأتمناه أنا أيضا مادمت متعطلا كالنحلة في خليتها لا تنتج شمعا ولا عسلا .

فقال أحد الأشراف :

– ولكنك محبوب يا مولاى .. والجميع يعرف قدرك .

فقال الملك بأسى :

– نعم .. فأنا مازلت حيا ومازلت أملأ مكانا فى هذه الدنيا ..

ثم تحول إلى برترام قائلا :

– هل تذكر ذلك الطبيب الذي كان يقيم عند أبيك ؟.. أسمه جيرار على ما أعتقد .. متى مات بالضبط ؟.

أجاب برترام :

– لقد مات منذ ستة أشهر يامولاى ..

فقال الملك :

– لو كان هذا الطبيب حيا لرضيت الخضوع لعلاجه ، وجربت طبه ولكنه للآسف مات .

ثم مد ذراعه إلى برترام :

– خذ يدى يابنى وساعدنى لأقوم ، فقد أنهك الأطباء جسدى بتجاربهم العقيمة .

أسرع برترام بتناول ذراع الملك .. ثم سار بجانبه متمهلا والملك يقول بيأس .

– إن الطبيعة والمرض يتصارعان على .



فى قصر الكونتسه ..

كان رئيس الخدم يطلب الأذن من سيدته بالكلام .فلما أذنت له قال :

– إننى يا مولاتى أعرف حق المعرفة مقدار حبك لوصيفتك هيلين .

فقالت الكونتسه :

– اننى حقا أحبها لا تنس أن أباها قد تركها وديعة عندى ثم إن هيلين نفسها فتاة رقيقة ،طيبة الظق جديرة بحبى لها

فقال رئيس الخدم مترددا :

– نعم .. إنها كما تقولين .. ولكن هناك أمرا ما ترددت كثيرا قبل أن أقرر البوح به .

سألته الكونتسة متعجبه :

- تكلم .

قال رئيس الخدم : لقد تصادف أكثر من مرة أن سمعت هيلين تناجى نفسها وهى وحيدة فى غرفتها .. وعرفت من تصنتى عليها دون علم منها أنها تحب ابنك السيد برترام حبا شديدا .

فقالت الكونتسه :

- وماذا كانت تقول ؟.

استطرد رئيس الخدم قائلا

- كانت تقول إن القدر لم يك رحيما معها لأنه أقام فارقا بين مقامها ومقامه ، وكانت تشكو أيضا ابتعاد السيد برترام وسفره إلى باريس ، الحق يامولاتى أن كلامها كان أحزن ماسمعت فى حياتي .. لذلك رأيت أنه من واجبى أن أبادر بإعلامك بهذا الأمر .

قالت الكونتسة شاكرة :

- هذا واجبك وقد أديته بالفعل ، ولكن حذار أن تبوح بهذا الأمر لأى مخلوق واعلم أنني كنت متشككه في هذا الموضوع بالذات ، ولكن كانت تنقصني الأدلة التي أتيتنى بها الآن .

ثم صرفته شاكره بعد أن حذرته مرة أخرى بضرورة كتمان هذا الأمر .

وخرج رئيس الخدم وبقيت وحدها تفكر ..

المسكينة هيلين .. لابد أنها تتعذب وتشقى بهذا الحب الذى مررنا به جميعا نحن بنات حواء فى شبابنا .. إننى أعذر هذه الفتاة ولا أعتبر

مشاهرعا هفوة ولا حبها لابنى زلة لأننى وأنا فى سنها فعلت وشعرت بمثل ما تفعل وتشعر ..

ثم نادتها فلما أقبلت كانت شاحبة الوجه يرتسم الحزن على هيئتها .

وقالت هيلين :

– نعم يا مولاتى !؟..

الكونتسه :

– اجلسى يا ابنتى بجانبى ، فلى معك حديث .

جلست هيلين طائعة .. وأطرقت برأسها إلى الأرض وكأنها لا تريد أن تلمح سيدتها محياها الحزين .

قالت الكونتسه برفق :

– أنت تعرفين يا هيلين أننى أم لك .

قاطعتها هيلين وهى مازالت مطرقة برأسها :

– بل مولاتى .. وسيدتى .

ولكن الكونتسة أجابتها :

– بل أم .. ما بالك وقد أزعجتك هذه الكلمة وكأنك شهدت حية تسعى ؟.. ماذا يضيرك لو كنت أما ؟.

أجابت هيلين :

–لأننى لست ابنتك ..

عادت الكونتسة تقول :

– أنا أقول لك إنني أمك ، وأضعك في مصاف من حملتهم في أحشائي بل على العكس .. إنك لم تتعبيني في الحمل والوضع .

رفعت هيلين رأسها وواجهت محدثتها قائلة :

– عفوا يامولاتي .. لو كنت أمي .. فسيكون الكونت روسيون أخي ولا يمكنني ذلك لأنني من أصل وضيع ، وهو من منبت رفيع ، أبي كما تعلمين كان طبيبا فقيرا .. أما أبوه فهو شريف نبيل .. هو مولاي وأنا خادمته فكيف يصح أن أصير أختا له ؟!..

ثم أجهشت هيلين بالبكاء .. وانتظرت الكونتسة قليلا قبل أن تقول :

– أنت مضطربة الأعصاب يا ابنتي .. ولكنني قد أدركت سر شحوبك وتحول حالك .. أنت تحبين برترام ، وليس في وسعك أن تنكري حبك إياه ، فقد فضحك كلامك ، وكشفت هيئتك سرك .. تكلمي ياابنتي .. وليعاونني الله على مساعدتك .

هبت هيليان من مقعدها وجثت على قدمي سيدتها قائلة :

– حسنا ..أعترف يا مولاتي وأنا جاثية أمام الله .. وأمامك إنني أحب ابنك حبا يزيد على حبي لنفسي ، لقد كان قومي فقراء ولكنهم إخوان صدق ووفاء وكذلك حبي ، أطمئنك ياسيدتي أنه لا ضرر على برترام من حبي هذا فليس ثمة جدوى أنتظرها من هذا الحب حتى لو سكبت دموعي أنهارا .. أنا مثلي في ذلك مثل عبدة الشمس التي تنظر إلى عابدها ولا تدري عنه شيئا فنري عينا يا مولاتي فابنك في مأمن من حبي .

أشفقت الكونتسة على هيلين .. ولكنها أخفت تأثرها وسألتها بحدة :

– لماذا إذن ترغبين السفر إلى باريس ؟.. قولى الحق .

قالت هيلين :

– أقسم بالله إن ما سأقوله هو الحق .. أنت تعلمين ياسيدتى أن أبى قد ترك لى بعض الوصفات الطبية التى أهتدى إليها من قراءاته ، وأثبتها بتجاربه ، وهى وصفات فيها الدواء لكل داء .. وأوصانى قبل موته بألا أهبها إلا عند الضرورة القصوى ولذوى المقام الكبير .. لذلك فكرت أن أقدمها للملك عسى الله أن يشفيه من مرضه العضال

فقالت الكونتسة متسائلة :

– أتقولين الحقيقة يا هيلين ؟.

هيلين :

– نعم يا مولاتى انها الحقيقه ، وقد أقسمت بذلك

عادت الكونتسة تقول :

– ولكن .. هل تظنين أن الملك سيقبل وصفاتك ؟ إن الجهابذة أطبائه قد عجزوا عن إبرائه .. فهل ترينه سيصدق أن فتاة صغيرة لم تصب علما ولم يسبق لها ذكر تحمل له الشفاء العاجل !؟

أجابت هيلين :

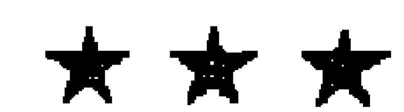
– قد لا أكون معروفة عنده ، ولكنه لابد أنه سمع بأبى الذى كان ، كما تعرفين أكثر الأطباء علما وفنا .. والآن هل تسمحين لى بالسفر يا مولاتى

فقالت الكونتسة وهى تحتضنها :

– لك يا هيلين الأذن .. وسأقدم لك ما يستلزمه سفرك من أموال ومتاع وأتباع .. ولا تنسى أن تنقلى سلامى إلى برترام .. أما أنا فسأبقى هنا أدعو الله أن يبارك جهدك ، متى سترحلين يا ابنتى ؟..

فقالت هيلين :

– غدا .. إن شاء الله وشاءت مولاتى .



الفصل الثانى

فى القاعة الملكية انتشرت مجموعات من الأشراف الذين حضروا لاستئذان الملك فى ذهابهم للقتال ، كانوا فى كامل هيئتهم العسكرية تزين رؤوسهم الخوذات اللامعة المصقولة ، وتتدلى من أجنابهم السيوف المطهمة خيرة شباب فرنسا وفلذات كبدها كانوا ، يملأهم الحماس ، يتعجلون الرحيل وكل منهم يرغب فى العودة مكللا بالنصر والسيرة الحسنة

ودقت الطبول معلنة وصول الملك ، الذى دخل القاعة متكئا على بعض أعوانه ، وقد أعياه المرض وذهب بصحته ذلك الداء المحير .

وأجلسه أعوانه على أريكة تتيح له الراحة .. فلما استقر عليها .. قال مخاطبا الأشراف :

– وداعا أيها الأشراف الشباب.. لا تنسوا وصاياى إليكم ، ولتعودوا إلى باريس بسلامة الله .

فتقدم أحد الأشراف نائباًعن زملائه ، وانحنى أمام الملك قائلاً :

– نرجو يا مولاى أن نعود إلى فرنسا ظافرين ، لنجد سموكم وقد ذهب مرضكم ، واعتدلت صحتكم ..

ابتسم الملك بحزن قائلا :

هيهات .. هيهات فقد تمكن الداء منى بدرجة محزنة ، ولكن سواء كنت حيا أو ميتا فإن فرنسا تنتظر عودتكم مكللين بالنصر .. ولا تنسوا أبدا وصاياى إليكم وإياكم وبنات إيطاليا حتى لا تصبحوا أسرى قبل أن يرفع أحدكم سيفه .. فالناس يقولون إن الفرنسى لا يقول "لا" ، لامرأة.. فأثبتوا عكس هذا .

فقال الشريف بعزم :

– إن نصائحكم الثمينة ستكون نصب أعيننا دائما..

وفى تلك اللحظة دخل برترام وتابعه بارولس فلما رأى برترام الأشراف على هذه الهيئة المهيبة تمنى أن يسمح له الملك بالسفر معهم للقتال ، ولكنه كان على يقين بأن مولاه سيحجب هذا الشرف عنه خوفا عليه ، ولظنه أنه مازال حدثا يعوزه التدريب قبل أن يذهب للقتال ، لذا فقد انتحى جانبا ينظر إلى زملائه بعين الحسرة ، فى حين كان بارولس مدعى البطولة يحادث أحد الأشراف قائلا :

– ستكون حربا ضروسا ، فأرفعوا اسم فرنسا عاليا وأئتوا لها بالمجد العظيم .

فسأله الشريف :

– ولماذا لا تشترك معنا ..

أشار بارولس إلى برترام بطرف عينيه ثم قال :

– على البقاء مع هذا الفتى المسكين .. انظر إليه كيف يتحسر ويتألم لعدم اشتراكه .

فقال الشريف :

– ماله ومال الحرب ؟.. انه مازال صغير السن جدا .

أمن بارولس على قوله ثم تحول إلى برترام مشفقاً .. وقال مواسياً :

– إذا كنت مصرا على الذهاب معهم فاذهب يا غلام .

أجابه برترام بأسى

– لا .. على أن أبقى هنا لأننى مازلت صغيرا كما يقولون فلا مكان لى بينهم .. وكل ما على القيام به هو العبث مع الغوانى وتقبل مجالستهن ومداعبتهن .

فقال بارولس بحمية زائفة :

آه لو ذهبنا معهم يا برترام .. ولكنها الأوامر الملكية والتى لابد أن تطاع.

ثم تحول إلى الشريف قائلا :

– حسنا .. ستذهب يا سيدى إلى حيث المجد والبطولة .. قد تقابل هناك ضابطا يدعى " سبوريو "، وهو إيطالي شجاع تركت على وجهه ندبة أحدثتها بسيفى هذا ، فإذا قابلته .. فقل له إن طاعنك بارولس مزال حيا . الوداع ياسيدى ، وليرعاك إله الحرب ويسدد خطاك .

ثم شهدت قاعة العرش ضجة قصيرة أحدثتها أصوات خروج الرجال وصيحاتهم .. ثم مالبث أن عاد السكون إليها مرة أخرى ، بعد أن خرج الجميع .. وبقى الملك وحده .

وبعد فترة جاء الحاجب مستأذنا الملك في دخول اللورد لافية ، فلما دخل جثا على ركبتيه أمام الملك قائلا :

– اغفرى لى حضورى يا مولاى على غير ميعاد ..

فقال الملك :

– أنهض يالاقيه ، وقد غفرنا لك .

فقال لاقيه :

– ولكننى مع ذلك حضرت لأمر هام .. لقد جئت لأسألك هل تريد البرء من علتك ؟.

فأجابه الملك بتلقائية :

–لا ..

تعجب لاقيه من هذه الأجابة السريعة والتى ما جاءت على هذه الصورة إلا ليأس الملك فى الشفاء .ولكن لاقيه أستطرد قائلا :

– عجبا .. انت والله كالثعلب الذى لم يأكل العنب لأنه عجز عنه ولكنك حتما آكله لو استطعت الوصول اليه *.

فقال الملك غير مكترثا :

– لا أفهم قصدك !!.

قال لاقيه :

– لقد أهتديت إلى طبيبة تقدر على أن تهب الصخر حياة ، وتجعلك ترقص كالكروان .

يشير لاقيه هنا إلى قصة الثعلب الشهيرة فى حكايات لافونتين حيث لم يستطع الوصول إلى العنب فتحول عنه قائلا : إنه مر لا يصلح للأكل .

صاح الملك :

- عجبا .. ومن تكون هذه ؟.

استطرد لاقيه بحماس إنها طبيبة حاذقة من رعاياك يا مولاى .. أقسم بشرفى إننى ما قبلت امرأة فى حسنها .. ولا أنوثتها .. ولا حكمتها . فلتأذن لى يا مولاى بإحضارها أمامك .

فقال الملك :

- أحضرها يا لاقيه .

خرج لاقيه مسرعا وهو يقول

- فورا يا مولاى ..فورا .

ثم عاد بعد برهه مصطحبا معه هيلين

- ادخلى يا هيلين .. أدخلى .

ودخلت هيلين .. ثم جثت على ركبتيها أمام الملك فى حين كان لاقيه يقول :

- ها هو ذا جلالته .. تحدثى إليه عما يجول فى خاطرك ،إنك تبدين دجالة فى ناظره .. ولكن عليك به .. أقنعيه بنفسك أما أنا فسأترككما الآن فإلى اللقاء ..

وخرج لاقيه مسرعا ، وبقيت هيلين فى حضرة الملك جاثيه حتى خاطبها الملك قائلا :

- انهضى يا فتاة .. وحدثينى عن نفسك .

وقفت هيلين قائله :

أنا يا مولاى ابنة جيرار دى نارمون ..

هز الملك رأسه قائلا :

- أنا كنت أعرفه .. نعم .. فقد كان طبيبا بارعا لا مثيل له .

فقالت هيلين متشجعة :

-مادمت تعرفه .. فلا حاجة لامتداحه أمامك .. ولكن اعلم يا مولاى أنه قد أعطانى وهو على فراش الموت عدة وصفات طبية منها واحدة هى أعز ثمرات عمله وأغلى نتائج تجاربه ، وأمرنى أن أحتفظ بها وأحرص عليها كأنها عين ثالثة ، بل أغلى من عينى الأثنتين ، فأمتثلت لأمره ، واحتفظت بتلك الوصفات السرية ، لا أطلع عليها أحدا .. ولا أتحدث بشأنها بتاتا فلما سمعت بعلتكم ، جئت لأقدم هذه الوصفة التى ولاشك ستكون الشافية .

أطرق الملك برأسه مفكرا ثم قال :

- أشكرك أيتها العذراء .. وإنى كنت لا أصدق أن تكون وصفتك المذكورة سبيلنا إلى الشفاء .. ألا تعلمين .. أن خيرة رجال الطب عندنا قد عجزوا عن إنقاذى ؟ وهل تعتقدين أن الدجل سينجح حيث لم ينجح العلم ؟

فقالت هيلين مدافعة :

- ولكن وصفتى ليست دجلا يا مولاى ، بل انها نتاج عقل عبقرى وجهد عظيم لرجل نابه أنت نفسك تشيد به وتمتدحه .. ومع ذلك يا مولاى فقد أتيت بدافع الخير لسموكم .

أجابها الملك :

- وإنني لشاكر لك مجرد تفكيرك فى المساعدة .. أما علتى فدعيها وشأنها فأنه لا برء منها ولا شفاء ..

ولكن هيلين ما كانت تاركة لهذه الفرصة التى تبغى من ورائها هدفا عظيما ، وعادت تقول :

- أنت ترفض علاجي لصغر سني ولكن اعلم يا مولاى أن أعظم الفيضانات قد يأتى من أصغر الموارد ألم تنبئك تجاربك أنه غالبا ما يتحقق ما كان الأمل فيه واهيا واليأس منه قويا .. إننا لا نملك أقدارنا ، والدنيا تسير على نحو غريب يستعصى على المنطق وفى بعض الأحيان تأتى المعجزات التى تهدم الحقيقة وتذهب بالعقل .. فلا تظن يا مولاى أن يأسك معناه أنه لا شفاء لمرضك ، فأنت بذلك تقتل نفسك حيا ..

كان الملك يستمع إلى حديثها المتدفق وقد أعجبه حماسها ، واستمال عقله منطقها .. فقال وهو ينظر إلى عينيها :

- وماذا لو فشلت وصفتك ؟..

أجابت هيلين :

- إذا فشلت وصفتى !؟ افعل بى ماشئت .

فقال الملك :

-يخيل الى أن فى كلامك روحا مباركة تتحدث ، وفى ضعفك صوتا قويا ينبعث .. إن حياتك غالية لأنك شابة جميلة ولا أظنك على استعداد لفقدانها ، حسنا سأجرب وصفتك فإن مت منها ، ستموتين معى .

فقالت هيلين بفرح :

– نعم يامولاى .. إذا تجاوزت وصفتى الوقت المحدد لسريان مفعولها ، أو أخفقت فى أى جزء صغير مما وعدتك به ، فدعنى أمت بغير رحمة ولا رثاء . ولكن ..

ثم سكتت ونظرت إلى الملك الذى سألها بتعجب :

– ولكن ماذا ؟..

استطردت هيلين :

– ولكن ماذا لو نجحت الوصفة وعدت يا مولاى سليما معافىً ؟..

أجاب الملك بحرارة :

– كل ما تطلبينه مجاب ..

فقالت هيلين :

–كل ما أطلبه يا مولاى أن تسمح لى بأن أختار لنفسى أى زوج من رجالك ، ولا تظن أنى طامعة فى الزواج برجل من العائلة الملكية فأنا أعرف قدر نفسى ، ولكن الرجل الذى أتحدث عنه هو أحد أتباعك ..

فقال الملك وهو يصافحها :

– هذه يدى .. وهذا قسمي .. سأهبك الزوج الذى تريدين بشرط أن يتم الشفاء الكامل .. لن أسألك يا ابنتي المزيد عن نفسك ونشأتك .. بل سأضع نفسى ومرضى تحت تصرفك .. ولن تجدى منى إلا الخير طالما صدق علاجك وعادت صحتى إلى سابق عهدها .

جثت هيلين على ركبتيها .. وقالت وسط دموعها :

– صحتك .. أو موتى يا مولاى .

وجدت الكونتسة نفسها وحيدة وقد خلت دارها من الأحبة ..اذ ذهب وحيدها برترام إلى باريس ليضع نفسه تحت رعاية الملك ، وإليها ذهبت هيلين من بعده لتعرض وصفتها الطبية الشافية على ما تقول وتجزم .

ترى ما هى أخبار ولدها الغائب !؟..

وماذا فعلت هيلين مع الملك !؟.. هل تقبل عرضها ؟.. وأن فعل ، فهل أتت الوصفة مفعولها ؟..

كانت تلك الأسئلة تدور فى ذهنها ، حين جلست تخط بيدها رسالة .. ما أن انتهت منها حتى طوتها بعناية وأمرت باستدعاء تابعها وكلفته بحمل الرسالة إلى هيلين ، فودع التابع سيدته ، وأسرع يمتطي جواده عازما على العودة فى اقرب وقت كما طلبت سيدته ..



وفى باريس ..

بدا أن وصفة هيلين الطبية قد أتت ثمارها ..

فقد انتشرت أخبار شفاء الملك من مرضه العضال ، وعزى الناس ذلك إلى معجزة أو قوى خارقة .. فالملك كان فى طريقه إلى الموت لا محالة وإن كان شفاؤه قد تم على يد فتاة صغيرة فهو أمر عجيب يتجاوز حدود الفهم وحكم العادة .

كان لافيه يتحدث إلى بارولس فى قاعة العرش وكان موضوع حديثهما هو نفسه الحديث الشائع فى تلك الفترة .

قال لافيه :

– يقولون لقد مضى عصر المعجزات .. ولكن هاهى معجزة تحدث .. ترى ما هو رأى " الفلاسفة " الآن ..

أجاب بارولس :

–إن ما حدث يعد أعجوبة حقيقية .وأسأل فى ذلك أساطين الطب ..أن ما حدث يمكن اختصاره في جملة واحدة " معجزة سماوية على يد بشرية "

هز لافيه رأسه موافقا .. ثم أستدار على صوت الخطى التى كانت تسير على مقربة وما لبث الملك أن دخل تتبعه هيلين ، وبرترام وبعض الأتباع .

كان الملك هاشا باسما ، يسير معتمدا على نفسه ، مهيب الطلعة موفور الصحة كسابق عهده .

أما هيلين فقد كانت تبدو فى قمة السعادة .إذ حققت للملك طلبه ، وبقى أن يحقق هو طلبها .

جلس الملك على عرشه ثم قال مخاطبا هيلين :

اجلسى بجانبى يا منقذتى .

أطاعت هيلين وجلست فى استحياء بجانبه ، ثم قال الملك :

– اجمعوا لى كل أشراف البلاط .. أريدهم هنا فوراً .

وأسرع الحراس لأستدعاء الأشراف ، بينما ألتفت الملك إلى هيلين قائلاً :

– لقد بررت بوعدك ، وعلى الأن أن أبر بوعدى .. عليك فقط أن تحددى أختيارك ليكون لك من تشائين .

وسرعان ماجاء الأشراف الذين اصطفوا وبرترام بينهم .. فى صف

واحد أمام الملك .. وهم لا يعلمون سبب طلب الملك لحضورهم .. ولكنهم .. سرعان ما سيعرفون

قال الملك موجها حديثه لهيلين :

– أيتها الحسناء ، ارسلى بصرك إلى هؤلاء الشباب من الأشراف العذاب هاهم يقفون أمامى صاغرين فاختارى منهم ، وليس لأحد أن يرفض .

غادرت هيلين مقعدها وأتجهت إلى مجموعة الأشراف المصطفة وأخذت تتفرس وجوههم واحدا تلو الآخر .

وهمس لاثيه العجوز فى أذن بارولس :

– آه لو كان لى قوام هؤلاء الفتية وهيئتهم ! .. آه لو كنت أصغر سنا ..

فقال بارولس وهو لا يصدق عيناه .. ولكنها هيلين .. هيلين وصيفة الكونتسة !!.

قال الملك مشجعا :

– تأمليهم جيدا يا هيلين ، لا شاب منهم إلا من أب مجيد ..

و .. مستجمعة لكل شجاعتها ، متغلبة على حيائها الفطرى .. قالت هيلين تعلمون ياسادة أن الله قد رد على يدى صحة الملك وعافيته .

صاح الأشراف :

– لقد علمنا .. ونحن لك شاكرون .

استطرد هيلين :

– لست الا فتاة تعتز بحيائها ولا تملك غيره ، والله ما أنا بقادرة على الاختيار بينكم .. ولكن امر جلالته لابد وأن يطاع .

صاح الملك مشجعا :

– انظرى واختارى .. ومن يرفض حبك يرفض حبى ..

أخذت هيلين تكيل المديح لكل شريف تمر من أمامه .. وكان كل منهم يتمنى من صميم فؤاده أن تتخطاه لأن منهم من هو خاطب ومحب وواعد ..

ولافيه ينظر بحسرة قائلا :

– لو كان هؤلاء الفتيان أولادى لأمرت بجلدهم .. من يرفض هذا الجمال ؟.. ومن يأبى الزواج من تلك الحسناء !.. عجبا من صخرهم أم جليد !؟.

وواصلت هيلين أستعراضها للوجوه الشابة ، ثم توقفت أمام برترام وخاطبته قائلة :

– لا أجرؤ على القول بأننى أخذتك ، بل أقول أعطيتك نفسى وإخلاصى مادمت حية ثم أستدارت قائلة :

– مولاى .. هذا هو الرجل الذى أريده ..

فقال الملك على الفور :

– برترام .. خذها يا ولدى فإنها زوجتك .

ألجمت المفاجأة لسانه ، وظل فترة لا يتكلم .. فقد كان أخر مايتوقعه أن تختاره هيلين وأن يأمره الملك بالزواج منها ..

أعاد الملك قوله منبها الشاب برترام :

فقال برترام :

– زوجتى !!.. زوجتى يامولاى !!.. ولماذا يا مولاى ؟

فقال الملك وقد بدأ الغضب يتملكه .. ألا تعلم ماذا صنعت لى !؟.

أجاب برترام :

– أجل يا مولاى الكريم .

عاد الملك يقول :

–لقد أنهضتنى من فراش مرضى ..

فأجاب برترام :

– ولكن هل تستلزم فعلتها تلك أن تعرضنى للمذلة والمهانة !؟.. هل من واجبى أن أتحمل أنا نتيجة وصفتها !؟.. إننى أعرفها حق المعرفة فقد كان أبى هو الذى تولى تربيتها .. لا .. لن أتزوج أبدا بأبنة طبيب فقير .

بقدر ما كان الموضوع مفاجأة للشاب النبيل ، بقدر ما كان سخط الملك وهو يسمع ويرى من يعارض أمرا ملكيا واجب الطاعة والأمتثال.

صاح الملك به :

– أهو لقب ذلك الذى تتحدث عنه !؟ .. فى وسعى أن أهبها أى لقب تريده أهو مال ذلك الذى تتشدق به وتفخر !؟.. فى إمكانى أن أهبها ثروة تفوق ثروتك ، وتفوقها كثيرا .. اعلم يافتي أن كل الناس سواسية لهم نفس الدم ونفس اللون ونفس الهيئة .. ولكننا مع ذلك تجذبنا الألقاب ونصنع منها

فروقا وسدودا ، هل تعرف على هذه الفتاة شيئا مشينا ؟ .. سوى ما تحدثت عنه من فقر أبيها !؟..

أجاب برترام :

– لا ..

استطرد الملك :

– إذن فأنت تكره الفضيلة .. أنت باحث عن مجد زائف وشرف ذاهب .. إن الخير وحده هو الخير بغير لقب ، وكذلك شأن الشر ، الشرف الحقيقى هو الذى ينمو بأعمالنا ويسمو بفضل فعالنا ، لا بأسلافنا وألقاب آبائنا .. انظر كم يستعمل السفهاء كلمة الشرف زر القبور والمح كم أدرجت هذه الكلمة على الشواهد !!..

لكن برترام قال :

– ولكننى لا أحب هذه الفتاة ، ولا أستطيع أن أحبها ، ولن أحاول أن أحبها .

هب الملك واقفا ودفع يده مهددا .. ورددت القاعه صدى صوته وغضبه وهو يقول :

– إن شرفى أصبح مهددا .. أسمع أيها الغلام المتكبر المتعجرف ، ألا تعلم أننا نحن الذين نهبك الشرف ؟.. ألا تعلم أننا نحن الذين نأمر فنطاع ؟ ستتزوج من هذه الفتاة وإلا لفظتك من عطفى إلى الأبد ، وألقيت بك إلى التيه والضياع .. والتشرد ، وتركتك بلا رحمة منا لفراغ الشباب وجهله .. هه .. ماذا تقول !؟..

وجد برترام نفسه بين شقى الرحى .. الملك بجبروته وسلطانه يهدده ويتوعده .

وهيلين الفقيرة تختاره زوجا من بين الجميع .. والملك يقبل هذا الزواج وهو يأباه وينفر منه .. أية حيرة !؟.. وأية معضلة .

صاح به الملك مرة أخرى .. تكلم .. قل .. ما هو جوابك ؟.

فقال برترام بلهجة المغلوب على أمره ، والمكره فيما يقوله :

– عفوا أيها المولى الكريم .. مادمت تريد وتأمر فأنا المطيع الملتزم .. فمن كانت بالأمس – فى عينى – أحقر المخلوقات ، أصبحت اليوم شريفة بفضل إطرائك وتكريمك .. فقال الملك مبتسما :

– إذن خذها بيدك .. وقبلها أمام الجميع .

وفعل برترام وامتثل .

وطبع على خدها قبلة صماء .. لاروح فيها ولا حياة .

ثم قال الملك مخاطبا الجميع :

– أنا .. ملك فرنسا أبارك هذا القران .. وسيكون الزفاف فى هذه الليلة نفسها أما الاحتفال الرسمى فسيؤجل حتما يعود أشرافنا من المعركة .

ثم غادر القاعة ، ومن خلفه الجميع ، وبقى لافيه وبارولس وحدهما يتناقشان فى ذلك الأمر الغريب .

قال لافيه متهكما :

–لقد أحسن مولاك فى تراجعه عن أبائه .

فأجابه بارولس :

– مولاى " .. هل تقصد أن برترام مولاى ؟..

فقال لافيه :

–نعم .. الا إذا كنت تعتقد انك ندا له ..

فأجاب بارولس محتدا :

– أنا ند لأى كونت .. ولكل كونت ولكل رجل فى العالم .

فقال لافيه :

– أنت ند لأى رجل فى خدمة أى كونت .

أغاظت سخرية لافيه وتهكمه بارولس فصاح به :

– انت شيخ هرم .. فالتفت لشؤنك ولا تتعدى حدود .

فقال الشيخ بهدوء :

– لتعلم يا هذا أننى رجل وهى صفة لن تكسبك الشيخوخة منها شيئا ..

وضع بارولس يده على مقبض سيفه وكأنه يدعو لافيه إلى المبارزة ، ولكن الشيخ المحنك تجاهل هذه الأشارة ، ومضى يقول :

– كنت أظنك إنساناً عاقلاً حين استمعت لك مرة أومرتين ، ولكننى الآن أرى نفسى مضطراً لتغيير حكمى عليك ..الواقع أيها المخلوق أنك لا تصلح لأن تكون شيئا .. أى شئ على الأطلاق ..

فقال بارولس محتدا :

لولا أنك عجوز .. لكنت ..

ولكن لاقيه قاطعه قائلا .

- لا تستسلم كثيرا للغضب فتردى بنفسك إلى التهلكة ، ولا تكن مثل الدجاجة القواقة تملأ الحظيرة بضجيجها ، فيضطر صاحبها لذبحها .

بارولس :

- سيدى .. إن فى كلماتك إهانات صريحة ..

فقال لاقيه :

-نعم .. ومن كل قلبى .وأنت بها جدير ،ولها مستحق .. سأتركك الان فإن الحديث معك مضيعة للوقت ..

ثم خرج لاقيه وبقى بارولس يردد كلمات دارت بينهما ..

- دجاجة قواقة ..!.. انا لا شئ ؟!..

ولكن لاقيه عاد بعد خروجه بلحظات .. وربما كانت هناك إهانات جديدة تستحق أن تقال .

قال لاقيه وهو يدخل :

- يا هذا ..إن مولاك وسيدك قد تزوج .. أبشر فستكون لك مولاة وسيدة جديدة ..

فقال بارولس :

- أرجوك أن تكف عن إهاناتك ؟.. واعلم أن لى سيدا واحدا .. ومولى واحد .

فقال لاقيه :

– ومن هو ..؟..

أجاب بارولس :

– الله .. نعم .. الله ياسيدى ..

ولكن لافيه ما كان بتاركه .. اذ قال :

– لا .. بل الشيطان مولاك ... ياحثالة البشر .. يا لا شئ ..

بارولس :

– متضرعا — بالله كفاك ياسيدى ..

ولكن لافيه الذى يبدو وكأنه يجد اللذة فى سبه وإهانته استطرد يقول:

– يخيل لى انك إهانة للناس عامة وأن على كل إنسان منهم أن يضربك بل وأعتقد انك خلقت كى ينفس الناس فيك عن مكنون صدورهم ..

فقال بارولس :

– هذه معاملة أليمة .. لم هذا يا سيدى ؟..

وباح لافيه بسر سخطه وغضبه على بارولس .. اذ قال :

– تقول انك صاحب أسفار وأخو رحلات .ولكنك في الحقيقة وكما عرفت من مصدر موثوق ، لست إلا شريدا يجوب الآفاق يسأل الناس طعاما وشرابا ، وتقول إنك حاربت فى ايطاليا والواقع انك ضربت فيها وحوكمت لأنك سرقت حبات رمان من أحد الحقول ...وتدعى أنك من النبلاء والأشراف والحقيقة أنك عديم النسب مجهول الأصل ، غير مذكور فى دفاتر الشرفاء ولا مدون فى قوائم وسجلات النبلاء ..

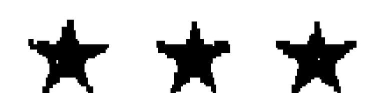
صاح بارولس :

– رحماك ياسيدى .. رحماك .. قد أكون كما تقول ولكن كفاك ..

فقال لافيه وهو يخرج :

–نعم .. سأكف لأنك لا تستحق كلمة أخرى..

ثم خرج تاركا إياه ، وحده ..مرة أخرى .



كان زواج برترام من هيلين قد تم كما عرفنا من لافيه سابقا ..

ونالت هيلين مأربها ، وتحقق لها ما أرادت ..

ولكن برترام وإن قبل أن يتزوجها ، فإنه لن يقبل أبداً أن يعاشرها ، حتى وإن قالت الأوراق الرسمية إنهما زوجان ، وإن قال الكاهن إنهما كذلك ، وإن قال الجميع ذلك .

فقد أوجد الزوج الجديد لنفسه مخرجا من مأزق أوقعه فيه أمر الملك وعزم هيلين ،ومسار الأحدث قرر برترام أن يلحق بزملائه الأشراف فى ميادين القتال وقد شاور بارولس فى هذا الأمر وذلك القدر فلم يجد منه سوى التأييد بل والتحريض .. ما عليه الأن إذن إلا أن يعد العدة للسفر .. حيث ميدان القتال أهون عنده من بيت مظلم وزوجة مكروهة .. وكان عليه كما خطط وقرر أن يبعث بهيلين إلى أمه الكونتسة والتى سيخطرها – الكونتسة – بأنه لا يحب زوجته التى فرضت عليه فرضا بأمر الملك الذى ظلمه كثيرا بهذا الزواج .



دخل بارولس على هيلين وخادم الكونتسة . عندها ، وقد جاء حاملا رسالتها إليها وجلس منتظر الرد .. فكتبت هيلين ردها بسرعة ، وضمنته تحياتها وسلامها لسيدتها ،وأخطرتها فيه بحال برترام ،وبما هو عليه من صحة جيدة ومزاج معتدل خافية أمر زواجه منها تاركة إياه إلى حين وسلمت هيلين الخادم الرد .

فخرج مسرعا ،،بينما بقيت هى مع باروليس وحدهما ..

قال باروليس :

– سيدتي .. إن مولاى برترام سيسافر الليلة في مهمة خطيرة ، وهو يطلب عفوك وعذرك لاضطراره إلى السفر على هذه الصورة المفاجئة .

فقالت هيلين بلا اكتراث :

– هه .. وماذا يطلب أيضا ؟..

قال باروليس :

–أن تستأذنى الملك له فى هذا السفر ، وكأنك أنت صاحبة فكرته

فقالت هيلين :

– وبماذا يأمر أيضا ..؟.

باروليس :

– أن تنتظرى بعد ذلك ما سيطلبه .

هبت هيلين واقفة .. ثم قالت :

– اذهب وأبلغه أن زوجته ستلبى وتنتظر كل اوامره .

كان برترام ولافيه فى إحدى حجرات القصر يتحدثان ، وقد قادهما الحديث الى ذكر بارولس الذى يرى فيه لافيه شخصا كذوبا لا مهارات عنده ولا كفاءة .. بينما يرى برترام عكس ذلك .

قال لافيه : صدقني يابرترام .. أنه ليس جنديا حتى !..

فقال برترام :

– بل إنه كذلك ياسيدى .. أنه جندى شجاع كما يقول الشهود ..

لافيه :

– بل قل كما يقول هو ..

برترام :

–أؤكد لك يا سيدى أنه على علم واسع ، وأن شجاعته لا تقل عن علمه ..

وفى تلك اللحظة دخل بارولس قادما من عند هيلين .. فبادره برترام بسؤاله :

– هه .. هل ذهبت هيلين إلى الملك ؟..

أجاب بارولس :

–نعم .. لتستأذن لك ..

برترام :

–وهل سترحل هى إلى دارنا ؟..

بارولس :

– أنها تنتظر أوامرك بذلك .

فقال برترام وهو يقفز فرحا :

- سيكون سفرنا الليلة اذن .. الليلة وليس بعدها .. أنا لا أسميه سفرا بل فرارا .. ولتنعم هيلين بعريسها .. إن وجدته ..

كان لافيه ينقل بصره بين برترام وبارولس .. وقد أدرك عزم الشاب فى الذهاب إلى ميدان القتال .. فقال يسأل برترام وهو يشير إلى بارولس :

- وهل سيسافر هذا المخلوق معك ؟.

برترام :

- نعم ..

فقال لافيه :

- بئس الصحبة هو .. صدقنى يابنى أن هذا الرجل- ان صحت تسميته بالرجل- لا يعتمد عليه أبدا .. فإذا كنت آخذه معك .. فاحذره ولا تكلفه بأمر خطير لأنه خاذلك فيه ولا محالة .. إن روح هذا الرجل هى ثيابه فلا تركن إليه أبدا ..

وخرج لافيه تخترق ظهره نظرات بارولس الساخطة ..

ثم دخلت هيلين وأخبرت زوجها بحصولها على الأذن له بالسفر من الملك

فشكرها برترام معللا سفره بدوافع سرية .. ثم سلمها رسالة كتبها إلى والدته الكونتسة وأمرها أن تشد رحالها لتعيش معها طوال فترة غيابه.

أطاعت هيلين طلبات برترام صاغرة .. وأنصرفت بعد أن ودعته بكلمت رقيقة دافئة .

أما هو ، فقد تمتم قائلاً :

– اذهبى الى البيت الذى لن أعود إليه يوما .. أذهبى الى حيث لن أراك بعد هذه الساعة ..



الفصل الثالث

أستقبلت الكونتسة تابعها بلهفة وسألته حين دخل عليها :

– هل قابلت هيلين ؟.. وهل قابلت ولدى ؟.. هه .. ماحالهما .. تكلم ..

فقال التابع وهو يلتقط أنفاسه ،

– بخير ياسيدتي .. بخير ، كلاهما بخير .. ولكن .

فسألته الكونتسة منزعجة :

– ولكن ماذا ؟.. تكلم ..

قال التابع :

–يبدو لى أن سيدى برترام ليس على ما يرام تماما ..

الكونتسة :

– ماذا تقصد ؟..

فقال التابع :

– لقد رأيته سيدا غير الذى عرفته .. وأحسب أنه فى حزن شديد ،

الكونتسة :

– ولماذا تظن هذا ؟..

التابع :

– أنهم يتحدثون فى القصر عن إرغام الملك له على الزواج من هيلين التي تعرفينها فغرت الكونتسة فاها وأستطردت فى دهشة .

– برترام تزوج بهيلين !؟..

التابع :

– نعم .. والظاهر أن سيدى لا يرحب بهذا الزواج ولا يرضاه .

فقالت الكونتسة :

– ويتم كل هذا وأنا هنا قابعة فى الدار لا أعلم عن ابنى شيئا ولا عن أمر زواجه .

فقال التابع وهو يمد يده إليها برسالة :

– هذا ما سمعته .. هذه رسالة أمرنى سيدى برترام بتسليمها إليك

فقالت الكونتسة وهى تتناولها .. هاتها .. وأخرج ..

وخرج التابع وفتحت الكونتسة الرسالة فى لهفة وقرأت ما فيها وكان :

" لقد أرسلت إليك زوجة ، شفت الملك وأضاعتنى ، لقد تزوجتها ولكنى لم أعاشرها ، وأقسمت ألا أفعل أبدا ، ستسمعين أنى هربت فاعلمى النبأ قبل أن تتلقيه ، فإذا كان لعالمنا حدود ، فأنى ذاهب إلى أقصى حد .. تقبلى أحترامى .

ولدك المنكود

" برترام "

ألقت الكونتسة بالرسالة على الأرض وتمتمت ساخطه :

تبا لك أيها الولد العاق الجموح ، أتخسر رضا ملك كريم وتستهدف لجام غضبه ؟ .. وتزدرى فتاة فاضلة تكفل لها أخلاقها أحترام نوى الجاه والسلطان ؟.. بئس ما فعلت .. وليكن الله فى عون المسكينة هيلين ..

كانت الكونتسة تشعر بالرثاء لحال هيلين وما جرى لها على يد ابنها برترام .. كانت تتفهم مشاعرها بل وتتعجب لإصرارها على الفوز بمن تحب وتعجب فى قرارة نفسها بفوزها بالزوج المطلوب .

وبينما هى تفكر فى تلك الشئون .. دخل تابعها مرة أخرى معلنا وصول " السيدة " هيلين بصحبة اثنين من الأشراف ، فلما دخلت هيلين اسرعت ترتمى فى أحضان الكونتسة وهى تقول باكية .

– لقد ذهب برترام ولن يعود أبدا .

ثم راحت فى نوبة طويلة من البكاء ، وهى تدفن رأسها فى صدر الكونتسة الحانية ولم تجد السيدة الحنون ما تخفف به من آلالم ربيبتها فأخذت تربت بحنو بالغ على ظهرها ، وتداعب شعرها حتى هدأ بكائها وهنا قالت الكونتسة بأمومة صادقة :

– هيلين .. ابنتى .. ان رؤيتك على هذه الحال تذهب بقلبى وعقلى.

ثم نظرت إلى الشريفين قائلة :

– فلتغفرا لى عدم الترحيب بكما ، فالحال كما تريانها ، ولكن أهلا بكما ضيفين عزيزين ..

أنحنى الشريفان أمامها فى أدب .. ثم قال أحدهما :

– إن شرف رؤيتك ، وتحيتك الرقيقة يغنيان عن بعضهما البعض ..

فقالت الكونتسة :

– لقد تعاقبت على نفسى الأحزان فترفقا بى وأخبرانى أين ذهب برترام ولدي ؟..

فقال الشريف الأول :

– لقد ذهب ليخدم دوق فلورنسا ، وقد التقينا به هناك ، وقد جئنا هنا فى مهمة عاجلة سنعود بعدها لنكون بجوار ابنك .

وقدمت هيلين ورقة إلي الكونتسة قائلة :

– لقد بعث لى برسالة مع هذين النبيلين اقرئى ما فيها لتعلمى كم حجم مصيبتى .. وخسارتى .

تناولت الكونتسة الورقة من هيلين وقرأت سطورها ، وكان فيها :

" انسى إنى زوجك .. ولكن إذا أستطعت أن تظفرى بالخاتم الذى فى أصبعى والذى لن يخرج منه ابدا ، وإذا أمكنك أن تأتى بولد من أحشائك وأصلابى فلتسمنى يومئذ لك زوجا ، وإلا فلا وإلى الأبد .." .

نحت الكونتسة الرسالة جانبا وهى تقول

– يالها من كلمات مروعة .

ثم التفتت إلى هيلين قائلة :

– خففى من حزنك ياابنتى ولا تحتكرى الأحزان كلها لنفسك .. فما زال لى منها نصيب ، لقد كان لى ابناً .. ولكننى سأمحو أسمه من دمى .. أنت

وحدك ابنتى .

ثم عادت تسأل الشريف :

- وهل ذهب ابنى الى فلورنسا وحده ؟.

أجابها الشريف :

- لا .. فقد كان فى صحبته خادم .. وآخر لا أتذكر اسمه ،

فقالت الكونتسة :

- " أهو بارولس ..

فقال الشريف :

- نعم ياسيدتى ..إنه هو ..

قطبت الكونتسة جبينها قائلة :

- مخلوق فاسد ، امتلأت نفسه بالشر ، وهو الذى أفسد ابنى وحرضه على مافعل .

فتقدم الشريف الثانى قائلا :

- صدقت ياسيدتى الكريمة ، إن ولدك مفتون بهذا الرجل المخادع .

وقفت الكونتسة قائلة :

- أسمحالى بالذهاب كى أشرف على الخدم وهم يعدون لكما مقاما طيبا فى قصرنا فانتما قادمان من سفر طويل وتلزمكما الراحة .

وأنت ياهيلين .. لابد أنك متعبة فلتستريحى قليلا ثم سيكون لنا حديث ، لقد فقدت زوجك ، وفقدت ابنى وكلاهما واحد فنحن إذن شقيقتان فى الحزن

اذهبى وأستريحى فى غرفتك القديمة .

ثم استأذنت الكونتسة ضيفيها ، وذهبت لتفعل كما قالت .

★ ★ ★

وفى المساء .. تأهب الشريفان للرحيل شاكرين للكونتسة حسن ضيافتها فقالت وهى تودعهما :

– أذهبا فى سلامة الله .. وإن رأيتما برترام فقولا له على لسانى إن سيفه لن يكسبه الشرف الذى خسره .

ثم سلمتهما رسالة كتبتها لابنها وأوصتهما أن يوصلاها إليه ، كما سألتهما العناية به فى ميدان القتال حيث تعوزه الخبرة والتجربة ..

★ ★ ★

وفى غرفتها كانت هيلين تفكر ..

آه يابرترام .. أنا التى طردتك من وطنك ، وأنا التى القيت بك فى أتون الحرب وأهوالها ، فليحفظك الله يا حبيبى . وليكن غريمى كل من يمسك بسوء أو يصيبك بأذى .. لقد حرمت فرنسا على نفسك بسببى فعد إلى وطنك سليما معافى ، أما أنا فلا مقام لى فى أرضها مادام مقامى سيبعدك ، سأذهب أنا تاركة هذا البيت الذى أقسمت على عدم دخوله مادمت فيه وسأنتظر حلول الظلام كى أنسل هاربة ، عسى أن يصلك نبأ فرارى فتعود إلى قصرك وأهلك وأصحابك .

أما انا .. فلست سوى لصة مسكينة حاولت أن تسرق قدرا يسيرا من السعادة .. ولكنها فشلت .. لم تعد لى حياة هنا .. فوداعا يافرنسا .. وداعا

كان رئيس الخدم فى قصر الكونتسة هو أول من أكتشف ذهاب هيلين إذ جاء فى الصباح طارقا باب غرفتها ليخبرها بأنتظار الكونتسة لها على مائدة الأفطار .. فلما يجد استجابة ووجد الباب مفتوحا .. دخل الغرفة مسرعا ليجد صاحبتها غائبة .. وليجد أيضا رسالة تركتها كاتبتها على الفراش .. فأسرع بها إلى سيدته التى قرأتها بصوت مسموع .

– أننى ذاهبة لأحج فى فلورنسا حيث مزار سان جاك عسى الله أن يغفر خطاياى ، ضارعة إليه أن يرد مولاى العزيز وولدك المحبوب من حومة الحرب الدامية إلى وطنه بسلام وعافية ، وسأكتفى بتقديس أسمه وسأخلص له الدعاء سائلة إياه الصفح عما كبدته من متاعب وجشمته من مكاره ومصائب ، فقد أنتزعته من أصحابه فى البلاط ، ودفعته للحرب حيث الموت المتربص .. ولكن روحى فداء روحه .. ونفسى قابلة للموت مادام هو حيا يتنفس ".

قال رئيس الخدم معقبا بعد أن سمع الرسالة :

– يالها من كريمة مخلصة .

وعقبت الكونتسة :

– وياله من شقى برترام هذا .. أنه لن يوفق أبدا مالم تتجيه دعوات تلك الطاهرة ..

ثم أمرت خادمها بأن يسطر رسالة إلى أبنها يصف له فيها حزنها الشديد ويعلمه برحيل هيلين ، عساه يعود .

ثم أضافت قائلة :

- وربما عادت هي بدافع الحنين والشوق .. والله لا أدرى أيهما أعز عندى وأغلى من الآخر ..!..

★ ★ ★

بعكس ماتوقعه الجميع ، كانت صولات وجولات برترام حديث كل رجال الجرب فى فلورنسا ذلك الشاب الغض فاقد الخبرة ، عديم التجربة أثبت بطولة فذة ، وأحرز أنتصارات عظيمة متفوقا بذلك على غيره من الأشراف أصحاب التاريخ المشرف في المعارك والحروب ، وقد وصلت أنباء شجاعته إلى دوق فلورنسا الذى أستقبله فى قصره ، وكرمه بل وعينه فى منصب قائد الفرسان ، وذاع صيت برترام ، وملأ أسمه المسامع والأفواه ، وأصبح حديث الجميع في كل المجتمعات سواء العسكرية أو المدنية .

واليوم خرج جميع سكان فلورنسا عن بكرة أبيهم ليشاهدوا ذلك القائد المظفر والذى سيمر ركبه أمام أسوار المدينة .. ومن هؤلاء كانت امرأة تعرف بين الناس بأسم " الأرملة " ، وقد حضرت مع ابنتيها ديانا وماريان لينعموا جميعا برؤية برترام وفرقته العسكرية ذائعة الصيت .

قالت الأرملة بعد أن أستطاعت شق طريقها وسط الجموع المحتشدة :

- تعالى يادينا وأنت يا ماريانا .. قفا هنا بجانبى فقد أقترب ركب الفرسان ..

فقالت ديانا :

-إننى أسمع دقات الطبول آتيه من بعيد .. أعتقد أنهم سيتخذون طريقا آخر غير هذا الطريق ..

فقالت ماريانا بحسرة :

– لنعد من حيث أتينا ، فقد ذهب جهدنا سدى.

ولكن الأرملة قبضت على ذراع ماريانا قائلة :

– كلا .. لننتظر .. أنا على يقين من أنهم سيمرون من هذا الطريق

ثم ألتفتت إلى ديانا قائلة :

– وأنت ياديانا ، أحذرى هذا الأمير الفرنسى المدعو برترام ، فقد لمحته ذات مرة ينظر إليك نظرة جائعة .. فإياك والأستسلام له يوما ..

فقالت ديانا :

– لا تخافى يا أمى .. فأنت تعرفين أن ديانا تعرف جيدا كيف تحافظ على عفافها .. تدخلت ماريانا قائلة :

– يقولون أن برترام نفسه شخص نزيه ، لولا تابعه الخبيث هذا المدعو بارولس الذى يغويه ويزين له طريق الفساد

وبينما هن يتحدثن .. إذ أقبلت امرأة غريبة ، احتلت مكانا بجانبهن . فرمقتها الأرملة بنظراتها .. ثم قالت .

– أغريبة أنت عن فلورنسا أيتها السيدة ؟.

أجابت السيدة الغريبة :

–نعم لقد أتيت إلى هنا للتبرك بمزار القديس چاك الأكبر ..

فصاحت الأرملة :

– أنت حاجة إذن .. مرحبا بك فى فلورنسا أيتها الطاهرة ، ولكن ما أسمك ؟.

أجابت الغريبة :

-هيلين وقد وجدت تلك الجموع المحتشدة .. فوقفت بينهم ، ويقولون إن هناك أميرا فرنسيا سيمر من هنا ..

قالت الأرملة :

-نعم .. وأظنك فرنسية مثله .. أليس كذلك ..

هيلين :

- بلى ..

فسألتها الأرملة :

- أنه يدعي كونت روسيون .. هل تعرفينه ..

فأجابت هيلين :

- لا أعرفه شكلا ولكننى سمعت عنه من قبل ، فهو حديث الناس فى فرنسا .. تدخلت ديانا فى الحديث الدائر بين والدتها وهيلين قائلة :

- يقولون أنه فر من فرنسا لأن الملك أرغمه على الزواج بمن لا يحب .. هل هذا صحيح ؟..

أجابت هيلين بأسى :

- صحيح .وأنا أعرف زوجته ..

فقالت ديانا :

-يشاع عنها أنها امرأة شرسة متسلطة ..

فسألتها هيلين بحدة :

– ومن الذى يشيع هذا عنها !؟..

قالت ديانا :

–رجل فى خدمة الكونت .. أسمه بارولس ..

ولكن الأرملة قالت مدافعة :

– لا .. أعتقد أن زوجة هذا الكونت شخصية مغلوبة على أمرها ، ولابد أن تكون طيبة فاضلة ، آه .. إننى أرثى لها بقدر سخطى على ذلك الشاب المغرور الذى ينصب شراكه للإيقاع بالفتيات البريئات .

فسألتها هيلين فى دهشة : تقصدين برترام ؟..

أستطردت الأرملة :

– نعم .. أنه يحاول أن ينصب شباكه حول ابنتى ديانا ، ولكن هيهات أن ينال ما يدبر له ويخطط ، فأبنتى فتاة عفيفة تعرف جيدا كيف تحافظ على شرفها .

فى تلك اللحظة .. لاح الركب .. تسبقه الطبول والأبواق ، ثم شاهد الجميع الكونت روسيون يمتطى صهوت جواده ، وبجانبه تابعه بارولس ومن خلفهما ضباط وجنود الفرقة .

كان الناس يهللون ويهتفون بحياة الأمير الفرنسى ، الذى واصل سيره مختالا دون أن يكلف نفسه عناء رد التحية لهؤلاء الذين يهتفون له .

قالت الأرملة :

– ها هو الفرنسى .. ذلك الذى يعلق الريشة فى خوذته .. أنظروا جمال هيئته .. ليته كان مخلصا لزوجته محبا لها .. ولكنه للأسف ليس كذلك .

كان قلب هيلين يخفق فى صدرها وهى تنظر زوجها وسط كل هذا المجد الذى كان من الممكن أن تشاركه فيه لولا ذلك الجفاء وذاك الصد منه .. فتنهدت فى حسرة .

مر الركب .وانصرفت الحشود .. وقالت الأرملة لهيلين :

- تعالى معى ياسيدتى حيث ستزلين ضيفة عندى ، فأنا أحب أن يدخل الحجاج دارى .. تبركا وتكريما .

قبلت هيلين دعوة الأرملة شاكرة ، وسارت بصحبة الأرملة وابنتيها إلى منزلها حيث ستنزل ضيفة طوال مدة مقامها فى فلورنسا .



فى معسكر الجيش خارج فلورنسا

كان شريفان من أصدقاء برترام مجتمعين عنده فى خيمته ، وكانا قد حضرا فى مهمة وأياها ضرورية تمليها الصداقة وزمالة السلاح التي تجمعهم - الثلاثة - فى رباط واحد متين .

وهما نفساهما - كما تذكر - اللذان اصطحبا هيلين إلى دار الكونتسة ثم غادراها بسرعة للحاق ببقية زملائهما فى ميدان القتال .

قال الشريف الأول :موجهاً حديثه إلى برترام .

- والله ياسيدى ماجئنا اليوم عندك إلا لضرورة

فسأله برترام متعجبا :

- وما هى ؟..

فقال الشريف الثانى :

– لقد رأينا أنه من واجبنا نحوك كصديق وكقائد أن نحذرك من ذلك المدعو بارولس .

فقال برترام بدهشه :

– بارولس!! .. ولكنه تابع مخلص ، ماهو مكمن الخطورة فيه ؟..

الشريف الأول :

– أن هذا الشخص ياسيدى حثالة لاقيمة له ولا قدر .

وأضاف الشريف الثانى :

– وفقاعة ..

صاح برترام وهو ينقل بصره بينهما :

– هل تظنان أننى كنت مخدوعا فيه ؟..

فقال الشريف الثانى مؤكدا

–نعم ياسيدي ، فهو جبان جبنا ظاهرا ، وكذاب لا حدود لكذبه ..

هز برترام رأسه فى إشاره منه بمعارضته رأيهما فى تابعه ، فقال الشريف الأول .

– اذن .. سنخضعه للتجربه .. فهى خير البرهان كما يقال ..

فسأله برترام متعجبا :

–وما هى هذه التجربة ؟..

أستطرد الشريف قائلا :

تعلمان أن لكل سرية علما وطبلة ، وإن خسارة أحدهما فى المعركة عار

كبير .

هز برترام رأسه :

–نعم .. ثم ؟..

قال الشريف :

–سندعى أن الأعداء سلبوا طبلتنا ، ونسأل بارولس بصفته أشجع الشجعان – كما يدعى – أن يسترد الطبلة حتى يمحو هذا العار المشين وأضاف الشريف الثانى : وسأفاجئه أنا وجماعة من الجنود الفلورنسيين الذين لا يستطيع بارولس أن يميزهم عن الأعداء ، فنشد وثاقه ونعصب عينيه ثم نبدأ أستجوابه ، وسترى وستسمع العجب ياسيدى ، وستعرف كم هو جبان ، رعديد .. خائن ..

فقال برترام :

– سأقبل الاشتراك معكما فى هذه التجربة ، وأن كنت لا أصدق ماتقولان عنه وتصفانه به .

وقف الشريفان متأهبين للخروج من الخيمة .. ولكن الشريف الأول قال :

– يلوح لى أنه قادم الآن .. فلتبدأ عملك ياسيدى .. أما نحن فسنختبئ خلف هذه الستارة لنسمع ما سيقول .

وعندما دخل بارولس خيمة سيده ، وجده مهموما مكتئبا فبادر بسؤاله قائلا :

– مالى أراك على هذه الحالة ياسيدى ، وانت الذى يجب أن يكون سعيدا مزهوا بنصره ومركزه ؟.

فقال برترام مصطنعا الحزن :

– وكيف لا أحزن وقد سلبنا الأعداء الطبلة وهى كما تعلم شارة مقدسة فى الحرب ، وفقدانها عار ،وأى عار ..!..

تردد بارولس قليلا قبل أن يقول بحمية زائفة :

– أنا الكفيل باستردادها لك يامولاى .

فهلل وجه برترام فرحا وقال :

– هذا ماقلته .. بارولس الشجاع هو الكفيل بهذه المهمة التى تتطلب قدرا هائلاً من الهمة والشجاعة .

شعر بارولس بتورطه فى هذه المهمة الخطرة ،ولكنه لابد وأن يواصل تمثيل دور الشجاع المغوار.

وقال برترام :

– إن المجد والسيادة ينتظرانك لو عدت بهذه الشارة المقدسة ، بل إننى سأخبر الدوق بتطوعك لأستردادها ، فهذا سيزيد من قدرك عنده ، وهو ولابد مكافئك .

شد بارولس قامته ورفع هامته قائلا :

– سأكون عند حسن ظنك يا مولاى .. والآن ..اسمح لى بالخروج لأعد نفسى لهذه المهمة العظيمة .. فأنا – كما تعلم – لا أحب كثرة الكلام ..

ثم خرج بارولس وهو يلعن نفسه ، ولسانه ووجوده فى هذه الدنيا .

خرج الشريفان من مخبئهما .

وقال الشريف الأول :

– أرأيت يامولاى .. كيف قبل هذه المهمة بتهور.

وقال الشريف الثانى :

– أؤكد لكما أنه سيعود بأكذوبة مختلفة ، ولكن هيا بنا .. فمازال أمامنا الكثير للإيقاع بذلك الثعلب ..



نزلت هيلين ضيفة على الأرملة وبنتيها ديانا وماريانا .. حيث خصصت لها تلك السيدة الكريمة حجرة مستقلة فى دارها ، وأوصت ديانا بالسهر على راحتها وتلبية كافة أحتاجاتها ، ولما حل المساء .. جلست الأرملة مع هيلين يتحاكيان ، وإذ بهيلين ذات القلب الجريح تبوح بسرها لتلك المرأة الطيبة .. وروت هيلين قصة زواجها ببرترام ، وكيف أن الملك قد ساعدها فى هذا الزواج ، وكيف أبتعد زوجها وفر إلى هنا –فلورنسا – غير آبه لحبها وكانت الأرملة تسمع منها وهى تتعجب .. ثم قالت :

– أسمعى ياسيدتى ، قد أكون امرأة فقيرة ، أعيش فى بيت قديم كما ترين ولكنى أبدا لا أطيق الشر ، وألعن كل خائن لئيم .

فقالت هيلين مستعطفة ، وهذا ما لمسته فيك ياسيدتى ، ولهذا أيضا أسألك مد يد المساعدة . فسألتها الأرملة بدهشة :

– وكيف أساعدك ، ومن أكون أنا من الأمير ومن زوجته ؟.

أستطردت هيلين قائلة :

– أنا امرأة ثرية وسأجزل لك العطاء لو شاركتينني فى ما أدبر له .

قاطعتها الأرملة

وأنا امرأة فقيرة . ولا تظنى أن بمقدورك شرائى بأموالك

فأجابتها هيلين

– أنا لا أشتريك أيتها المرأة الشريفة ، بل أشترى معاونتك الصادقة

ثم قذفت إليها بكيس ملئ بالذهب وأضافت

– وسأزيدك فوقه أضعافا ، فقط أسمعى لى فربما ساقتنى الأقدار إلى هنا كى أقابلك ، ويكون عندك ، وبك خلاصى من هذا العذاب

فقالت الأرملة

– وأنا معك

هيلين .

–إن الكونت – زوجى – يغازل ابنتك ديانا ، ويضرب حصاره حولها . ويعتزم الظفر بها .

قاطعتها الأرملة

– نعم .. ولكن هيهات أن يتم له المراد ، فأبنتى ديانا الحسناء لا يغريها أى شئ وهى عفيفة طاهرة ولا أظن أن محاولات زوجك ستأتى بنتيجة معها

فقالت هيلين :

–نعم . ولكن أسمعينى للنهاية ، إن الكونت على استعداد لبذل الغالى والرخيص فى سبيل ابنتك ، ولن يضن عليها بأى شئ تطلبه ، وهو يرتدى خاتما لا يخلعه أبدا لأن جده الأول كان يلبسه ، وهو بالتالى ثمين عنده جدا

لأنه يمثل شرف العائلة وأصلها ولكن .

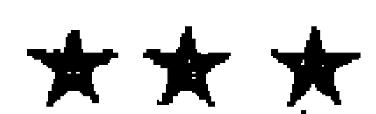
أضافت الأرملة الحاذقة :

– ولكن لو طلبته ديانا فأنه حتما سيخلعه من أصبعه ويعطيها إياه راضيا .

هللت هيلين :

– مرحى .. هنا بيت القصيد ياسيدتى .. كل المطلوب من ديانا أن تطلب منه هذا الخاتم وتضرب له موعدا للقاء ، وسأحل أنا محلها فى هذا اللقاء الذى ينتظره الكونت بفارغ الصبر .. وبذلك لن يمس الكونت فتاتك بسوء .

ثم جلست المرأتان يتناقشان فى تفاصيل تلك الخطة التى يراد بها خير هيلين ، وأرسلت الأرملة فى طلب ديانا ، فلما أتت شرحت لها ماتم الاتفاق عليه ، ووافقت ديانا بدافع الرغبة الصادقة منها فى مساعدة هيلين ، وبدافع تلقين الكونت المغرور درسا عله يعرف أنه مازال فى الدنيا فتيات عفيفات لاتسلب عقولهن المظاهر أوكلمات الحب الزائفة .. فتيات لا يفرطن فى شرفهن حتى أمام الملوك وأصحاب المقامات الرفيعة .



الفصل الرابع

كمين حقيقي ذلك الذى أعده الشريفان لباروس المحتال .. فقد حضرا بصحبة خمسة من الجنود وتخيروا موضعا عند أحد الأسوار اعتاد باروس المرور من أمامه لينفذا خطتهما فى فضحه وإثبات كذبه ..

وكانت خطتهما تقضى بأن ينقض عليه الجنود ، ويمسكوا به وهم يتكلمون بلغة غريبة يخترعونها ، وسيقوم أحد الجنود بدور المترجم بين باروس وبين هؤلاء الأعداء ".. وقد حرص الشريفان أن يكون جميع أفراد هذا الكمين من الجنود الذين لم يسبق لباروس معرفتهم ، ليظن حقا أنهم من الأعداء ، كما أوصوا هؤلاء الجنود أن تكون لهجتهم مخيفة وهم يتكلمون باللغة الجديدة ، فقد كان هذا كفيلا جدا بأن يفقد باروس صوابه ..

قال الشريف الأول مذكرا الجنود بتعليماته :

- فليتحدث كل منكم اليه باللسان الذى يخترعه بنفسه ، وليكن كلامكم كنعيق الغربان وليكن ثرثرة متقنة ، تصايحوا وأصرخوا فى وجهه .

ثم تحول إلى المترجم - وأنت أيها الجندى - فلتستعن بالسياسة وحسن الإدراك .

كان باروس فى تلك الأثناء يرع الخطى نحو موقع الكمين الذى لا يدرى

عنه شيئا ، مسكين هذا الأحمق الذى لا يتوقع أبدا ما سيواجهه بعد خطوات قليلة كان يسير متمهلا .. شاردا .. يحدث نفسه قائلا :

– الساعة الآن العاشرة ، إذن فقد مرت ثلاث ساعات منذ أن كلفنى الكونت باستعادة الطبلة .. ماذا أقول له وأنا عائد خالى الوفاض من أى طبله أو حتى عصا ..!؟ لابد أن أبحث عن حجة قوية أبرر بها فشلى وإخفاقى .. هل أجرح نفسى لأقول له أننى قد خضت معركة ضارية لأستعادة الطبلة ، وأن الأعداء تمكنوا منى لكثرتهم .. لا أن هذا الأمر يتطلب جروحا عميقة وكدمات غليظة وأنا لا أجرؤ على فعل هذا بنفسى .

بارولس يقترب اكثر من الكمين .. ومازال يبحث عن الحجة المناسبة .

أمزق ثيابى !؟. أم أخلعها كلها !؟.. أم أكسر سيفى وأقول أننى نازلت الأعداء وفررت منهم وجئت أطلب مهلة أخرى لتغيير سلاحى وملابسى .. لا هذا غير معقول ولن يصدقه الكونت .

بارولس يقترب أكثر .. وأكثر من الكمين .. ويعتصر عقله ليخرج بفكره جديدة وحجة أكثر أقناعا وفجأة .. لم يشعر إلا بمجموعة من الجنود تقفز نحوه ، ثم تلتف حوله .. وهم يتصايحون .

– تروكا كارجو موفاس ..

ثم أنقضوا عليه وبسرعة .. شلو حركته ثم قام أحدهم بتعصيب عينيه بقطعة من القماش الأسود ، فأصبح لا يرى شيئا .. بل يسمع صيحات غريبة .

– فاكوكو ماكو كارجو .

فصاح بارولس فزعا :

-أين أنا !؟.. ومن أنتم ؟.. وما شأنكم بي؟!.

ولكنه تلقى الأجابة بنفس اللغة :

-بوسكوس ترومالداني بوسكوس .

فقال بارولس وهو يهز رأسه :

– آه .. أنتم من فرقة البوسكوس .. ولكني لا أفهم لغتكم .. أليس منكم من يتحدث الأنجليزية أو الألمانية أو الأيطالية .. كلموني بلغة أفهمها " أرجوكم " ..

وهنا تقدم المترجم إليه قائلا :

– أنا أعرف لغتك .. وسأترجم ما يقولونه وماستقوله .

فقال بارولس متوسلا .

– أسألهم ماذا يريدون مني ؟..

فتحول المترجم إليهم قائلا :

– كانوسس أو تبس كارجو ؟..

فأجابوا بصوت رهيب :

– كريكو ماكوري كوناندي .

بارولس :

– هه .. ماذا يقولون ياسيدي ؟..

قال المترجم :

– يقولون أنك ميت لا محالة .. فهناك سبعة عشر خنجرا مصوبة إلى صدرك ..

صاح بارولس:

– سبعة عشر خنجرا مصوبة إلى صدرى ، ياخساره عمرك ياباروس ثم تحول إلى المترجم قائلا :

– أسألهم ياسيدى ماذا بوسعى أن أفعل لهم ويتركونى .

وجه المترجم حديث إلى الشريف الأول قائلا :

– سيمى سيناتو مواد فيتشى كارجو ..

فقال الشريف الثانى :

– ماكاكى كيوا أكونتى ريكى ..

قال بارولس بلهفة :

– هه .. ماذا يقولون ياسيدى ؟..

أجابه المترجم :

– لقد وافق القائد على الابقاء على حياتك بشرط ان تبوح له ببعض الأسرار .. أتوافق على هذا ؟.

فقال بارولس بسرعة :

– نعم .. نعم .. أسأله ماذا يريد أن يعرف ؟..

فقال المترجم :

– سيصحبك القائد إلى الخيمة وأنت معصوب العينين وهناك ستجرى

عملية أستجوابك ..

ثم أقتاده الجنود الى خيمة الشريف الأول الذى كان يجلس مع برترام في أنتظاره .

دخل بارولس معصوب العينين إلى الخيمة والجنود يكيلون له الصفعات والركلات .. ثم أوقفوه فى الوسط .. وقال الشريف الثانى:

– مابوسكو مسكر ومكوركو ..

سأل بارولس المترجم :

– ماذا يقول هذا السيد؟

فقال المترجم

–أنه يأمر بإحضار آلة التعذيب .

فصاح بارولس فزعا .

– آله التعذيب ، لماذا .. أنا مستعد للإفصاح عن أى شئ

فقال المترجم :

– سأنقل للقائد هذا .. هل سترد على الأسئلة بصدق .

فقال بارولس :

– نعم .. نعم ..

وأخذ المترجم يسأل على لسان قائده وبارولس يجيب ، وبرترام لا يصدق مايسمعه .

المترجم :

– كم عدد فرسان الدوق ؟..

أجاب بارولس على الفور خمسة الآف أو ستة وأضيف كما يرضى سيدى القائد بأنهم ضعاف لا يصلحون والجنود مبعثرون والقواد محتالون .

وعاد المترجم يسأل :

–وماعدد المشاة ؟..

أجاب بارولس :

– خمسة عشر ألفا تقريبا ، وهم مجهدون جياع ..

المترجم :

–وماذا عن الأشراف الفرنسيين وعلاقتهم بالدوق ؟..

بارولس :

– معظمهم لاقيمة لهم فى باريس ، ومنهم واحد كان يعمل صبيا عند مرقع للملابس القديمة ، وآخر ضرب بالسياط لأنه اعتصب بنتا بلهاء مسكينة .

المترجم :

–وهل يعرف الدوق هذا عن الأشراف .

فقال بارولس :

– نعم .. وقد طلب الدوق منى أن أطرد ذلك الشريف الذى أغتصب البلهاء .. وقد كانت بالصدفة خرساء أيضا .. وأعطانى كتابا بهذا ..

المترجم :

- وأين هذا الكتاب ..

بارولس فى جيبى ..

فتش المترجم فى جيوب بارولس بناء على أمر الشريف ، ثم أخرج يده وفيها ورقة مطوية وسأل بارولس :

- أهذا هو الكتاب ؟..

فتحسس بارولس الورقة ثم قال : ربما .. فأنا لا أرى كما ترى .

أمر الشريف المترجم بقراءة الكتاب ففعل المترجم وكان فيها .

"يادياتا .. أن الكونت روسيون أبله وعنده ذهب كثير ، فإذا أقسم لك قسما أسأليه عطاء ، وإذا طلب منك شيئا أطلبى منه ذهبا .. ساوميه يادياتا وستحصلين على الخير الوفير ، ولا تنسى صاحب هذا الكتاب الذى حذرك واعلمى أن الكونت مجنون .. يدفع قبل أن يملك ، ولا يدفع أبدا ماهو مدين به" .

المخلص لك :

- بارولس ..

همس برترام :

- الملعون ..

وهم برترام بالأنقضاض عليه ولكن الشريف الأول أمسك به قائلا :

- فلتهدأ ياسيدى .. مازال هناك المزيد لتسمعه .

عاد المترجم يسأل بارولس على لسان الشريف :

– ما حكاية هذا الكتاب ..

فقال بارولس :

–لقد كتبته لغرض شريف ، فالكونت روسيون فحل فاجر ، وهو كالحوت في أفتراس العذارى يلتهم كل ما يجده من لحم طرى ، وقد أردت أن أحذر الفتاة المسكينة منه .

عاد المترجم يسأله :

–وما رأيك في الشريف المدعو ديمان ؟.

قال بارولس :

–لص حقير لا يتورع عن سرقة بيضة من الدير ، سكير يشرب كالحلوف

المترجم :

–وهل هو خبير في الحرب ؟.

بارولس :

–لا .. بل هو جبان خسيس .

المترجم :

–هل يمكن رشوته ؟..

بارولس :

– أنه يبيع عائلته كلها من أجل بضعة دراهم .

ثم أقترب المترجم من بارولس وهمس له في أذنه قائلا :

– سأحاول إقناع القائد بالإبقاء على حياتك .. فتعهد أمامهم بصوت قوى

أنك مستعد لخيانة الدوق والكونت روسيون .

هلل بارولس ورفع عقيرته :

فليسقط دوق فلورنسا ، وليسقط الكونت روسيون معه .. ولشدة دهشته سمع القائد يقول بلسان سليم :

- يكفى هذا ، إنتزعوا العصابة عن عينيه .

تقدم المترجم (الجندى) منه ، ورفع العصابة ونظر بارولس حوله فوجد جمعا يعرفه هم : الشريفان ، وبرترام ومعهم مجموعة من الأشراف ورجال الجيش .

وقف فترة يحدق فيهم .. وهم ينظرون نحوه بوجوه جامدة صارمة . يبتسم مرة ، ويعبس أخرى ، ويحاول أن يتكلم فيخونه لسانه ، ثم يعاود التحديق .. وبدون أن يكلمه أحدهم .. خرجوا من الخيمة الواحد تلو الآخر .

وكان الجندى الذى قام بدور المترجم آخر من غادر الخيمة بعد أن قال :

- ابحث عن بلد آخر تختبئ فيها مع عارك ، وربما أستطعت أن تجد فيها ذرية قليلة الحياء مثلك

★★★

وبقى بارولس وحيدا .. يفكر ..

حسنا .. لن أكون ضابطا بعد اليوم بل سآكل وأشرب وأنام مثل بقية الناس ..

ثم رفع سيفه وقال :

- أيها السيف .. هذه أخر مرة أرفعك فيها ..

ثم عاد وغمده في جرابه .. فلتستقر إذن في جرابك حتى تصدأ ..

ولتحيا باروليس آمنا مطمئنا حتى وإن لصق بك العار ، ولا تبتئس ولا تسخط فان لكل إنسان حي مكانا في هذه الأرض الواسعة .. أبحث ياباروليس عن أشباهك لتحيا بينهما .. فكم تموج الحياة بمن هم مثلي ..

★ ★ ★

إذا كان برترام قد أثبت شجاعة فائقة وصلابة نادرة في ميدان القتال ، فهو الأن شخص مختلف تماما .. إذ إنه الأن يتحدث مع ديانا الفاتنة التي قبلت أخيرا أن تنفرد معه ، بعيدا عن الأعين .. وقد قاده غروره ، ودفعته شهوته إلى الأعتقاد بأن ديانا قد أوشكت على الأستسلام .. ولكن لن يعرف أبدا ذلك الشاب المتعجرف ما يدبر له في الخفاء .

قال برترام :

- رغم جمالك ياديانا ، فأنت متحجرة القلب جامدة العواطف .

فأجابت ديانا بدلال :

- لست متحجرة القلب ، بل فتاة تعرف كيف تحافظ على شرفها

فقال برترام بخبث .

- ولكن إن الفتاة تهب قلبها لمن تحب .

فقالت ديانا :

- تعلمنا أن لا نعطي قلوبنا إلا لأزواجنا ، وهو مالم تفعله ، فالناس يتكلمون على هجرك لزوجتك رغم أخلاقها وجمالها .

فقال برترام بضجر :

- أوف .. لا تزيدى فى هذا الموضوع بالذات ، فقد أرغمت على زواجها أنا لا أحبها .

ثم لطف من نبرة صوته وأضاف :

- ولكنى أحبك .

فقالت ديانا متهكمة :

- تحبنى حتى تنال مرادك ، ثم تتحول عنى .

فقال برترام :

- أقسم ..

قاطعته ديانا بحدة :

- لا تقسم ، فكثرة القسم لا تعنى بالضرورة أن ما سيقال حقيقة عجبا ..! كيف يقسم الأنسان بالله وفى نيته أن يقترف عملا شريرا بغيضا !.

فأجابها برترام :

- ولكننى لا أعرف الخداع .. بل أننى مستعد للزواج منك لو ماتت زوجتى .

فقالت ديانا :

- أنا أريد برهانا على حبك .. ووعدك لى بالزواج .

سألها برترام :

- أى برهان تطلبين ..

نظرت ديانا إلى يده وأضافت :

- أريد هذا الخاتم ، فأعطنى أياه ..

برترام :

- هذا الخاتم ؟.. سأعيرك إياه ولكن أن تأخذيه فهيهات أن هذا الخاتم يمثل شرف أسرتنا ، وتوارثناه عن أسلافنا .. ولو تخليت عنه لكان ذلك عارا كبيرا على .. وعلى أسرتى بكاملها .

فقالت ديانا على الفور:

- وأنا أيضا ، أن شرفي يمثل شرف أسرتنا ، وقد توارثناه من أسلافنا ولو تخليت عنه لكان ذلك عار كبيرا على .. وعلى أسرتى بكاملها .

رددت ديانا نفس كلمات برترام بحذافيرها ، وفكر برترام فى سلامة جوابها ومنطقه ، هو يطلب شرفها ، وهى تطلب الخاتم الذى يمثل شرفه .. من أراد أن يأخذ فليعط .. فليهبها الخاتم .. ويأخذ شرفها .. مقايضة عادلة أضطرته إليها تلك الفتاة المنيعة .. كم يتنازل الرجل كى يحصل على بغيته ؟ وما أفدح الثمن الذى يعطيه راضيا فى سبيل لحظات سريعة من المتعة المسروقة ولهذا .. كانت إجابته وهو يخلع خاتمه ويعطيها إياه قائلا :

- ها هو ذا الخاتم خذيه ، وليكن بيتى وشرفى وحياتى ملك يمينك فأنظرى بماذا تأمرين ؟..

وهكذا استسلم برترام قبل أن تستسلم هى ، وهكذا نالت مرادها قبل أن ينال مراده منها ، وهل يبز النساء مخلوق فى كيدهن وخداعهن ؟

تناولت ديانا الخاتم ، وبقى هو ينتظر جوابها وماستمن عليه به من رد ..

ثم قالت بلهجة المحسن الوهاب :

– اذا أنتصف الليل فأطرق نافذة مخدعى ، وسأحتاط أنا للأمر حتى لا تسمع أمى صوت قدومك .

فقال برترام بصوت المنتصر :

– فلينتصف الليل سريعا .

ديانا :

– ولكن أريد منك عهدا صغيرا .

فسألها بدهشة :

– وما هو ..؟..

أستطردت ديانا :

–عاهدنى أنك حين تغزو فراشى الذى كان حتى هذه اللحظة طاهرا عفيفا لن تمكث فيه أكثر من ساعة واحدة ، ولا تكلمنى خلالها ، أما عن خاتمك ، فسأعطيك خاتما سواه ليبقى على الأيام رمزا لما أتيناه ، وتذكارا لما فعلناه .. أتتعهد بذلك ؟.

جثا برترام عند قدميها قائلا :

– أتعهد بذلك ياحبيبتى ، وأقسم إلا انكث بوعدى أو أخون عهدى .

ثم ودعها وانصرف الي لقاء قريب فى منتصف الليل ، أما ديانا فقد أتخذت طريقها إلى بيتها وهى تفكر وتقول لنفسها .

ما أغرب الرجال وما أسرع الإقسام التي تجرى بها ألسنتهم ؟ لو كان كل الرجال مثل هذا الرجل الفرنسي ، فإني أقسم أن أعيش عذراء ، وأموت عذراء

★ ★ ★

ربما كانت هيلين نفسها ، أو الأرملة أو الأثنان معا هما مصدر تلك الأشاعة القوية التى أنتشرت فى فلورنسا ، وأنتقلت إلى فرنسا عن موت هيلين التى قضت نحبها بعد تأديتها لمهمتها المقدسة فى مزار سان چلك على أكمل وجه .

وراح الجميع يعلنون حزنهم وتأسيهم على موت تلك السيدة الفاضلة والزوجة المحبة التى أخلصت لزوج خائن ، متعجرف لاهم له سوى مطاردة الفتيات العفيفات ، إذ علم برترام بموت زوجته .. أرسل إلى أمه الكونتسة يخبرها بعزمه على العودة إلي فرنسا بعد أن ماتت زوجته ، مذكرا إياها بقسمه بأنه لن يعود إلى موطنه وتلك الزوجة التى يرفضها فيها ، أما موعد العودة ، فسيكون بعد توقيع الصلح بين الأطراف المتحاربة ، والذى أصبح وشيكا ..

★ ★ ★

وفى الميعاد المضروب ، وفى منتصف الليل توجه برترام إلى بيت الأرملة ودق على نافذة ديانا ، فأدخلته .

وألتزم بعهده السابق معها ، فلم يتكلم معها ، ولم ترد مده بقائه معها عن ساعة واحدة .

وخرج من عندها وفى أصبعه خاتم أهدته الفتاة إياه بديلا عن خاتمه

الثمين الذى فرط فيه في سبيل تلك الساعة من الزمان !!.

أما حقيقة ما حدث ويجهله هو أن كل ما جرى وكان .. إنما هو من تدبير هيلين والأرملة .

في الميعاد المضروب .. كانت هيلين هي الراقدة على فراش ديانا .. حتى جاء برترام و وضاجعها وهو يجهل حقيقتها ، فكلتاهما عذراوان .

ثم أهدته خاتما كان الملك قد أعطاها إياه ضمن هباته الكريمة لها أثر شفائه بفضل وصفتها الطبية .

وأستكمالا لتلك التدابير .. كان على هيلين أن تصطحب الأرملة وديانا معها إلى فرنسا ، فما زال للأحداث بقية .والعبرة دائما بالنهايات .

★★★

في قصر الكونتسة كان لافيه جالسا يعدد مناقب الراحلة هيلين ، والكونتسة تبكى مطرقة رأسها في أسى وهى تقول :

– لقد كنت أحب هيلين وكأنها من دمى ولحمى .

هز لافيه رأسه موافقا :

– نعم .. كانت سيدة صالحة لا يجود الزمان بمثلها أبدا .. ثم سكت لفترة ، فرفعت الكونتسة رأسها ثم سألته :

– هل هناك ما تريد قوله ياسيدى ؟.

فقال لافيه مترددا :

نعم ياسيدتى .. الواقع أننى قد تحدثت إلى الملك بشأن الكونت الصغير

برترام .. أنت تعلمين أنه عاضب عليه كل الغضب . بل ويحمله ذنب موت هيلين ولكننى وبكلمات منى ، أقنعته بالعفو عن برترام و

قاطعته الكونتسة :

– بارك الله فيك أيها الصديق المخلص .

وأستطرد لافيه مترددا :

–ثم تحدثت معه بشأن زواج برترام بابنتى ، وقد وافق جلالته .. فما هو رأيك ياسيدتي ..؟..

فقالت الكونتسة :

– بكل سرور ياسيدى ، بل وأتمنى أن يتم ذلك ، إن برترام سيصل الليلة مع زمرة الأبطال العائدين .. فلنتحدث معه فى هذا الأمر ، ثم نتوجه إلى قصر الملك للإعلان عن هذا الحدث السعيد .

فقال لافيه متهللاً :

– نعم .. إن جلالته فى مرسيليا الآن .. وسيعود إلى باريس غدا .. أن السعادة تنتظر الجميع بعد طول الحزن .

★★★

الفصل الخامس

فى طريق عودته من مارسيليا ، نزل الملك مع حاشيته فى قصر الكونتسة التى أستقبلت ضيفها العظيم بكل ما تقضيه واجبات الضيافة .

وكان الملك بادى الحزن وهو يقول مخاطبا الكونتسة :

– لقد فقدنا بموتها درة يتيمة لم يدرك ابنك الأحمق قيمتها ، ولم يعرف قدرها .

فقالت الكونتسة متوسلة :

– قضى الأمر يامولاى ، ولتعتبر ماحدث هفوة من هفوات الشباب

فأجابها الملك الذى كان يكن لها كل الاحترام.

– لقد عفونا عنه ، ونسينا أفعاله ونتائجها .

ثم أضاف وهو يحول بصره بين الحاضرين :

– فليأت الينا ، ويقف أمامنا ، وأطلبوا منه ألا يتحدث فيما فات .. وليكن شخصا جديدا .

أنصرف أحد الأشراف مسرعا ليستدعى برترام الذى جاء بعد لحظات وجثى على ركبتيه أمام الملك وهو يقول :

– أيها المولى العزيز ، مغفرة لما بدر منى ، وندمت عليه أشد الندم فقال الملك :

– أنتهى كل شئ .. ولا تذكر الماضى بكلمة أخرى .

ثم أشار إلى اللورد لافيه .. وعاد يقول :

– أتذكر أبنة هذا الشريف ..؟.

فقال برترام من فوره :

– نعم .. أذكرها يامولاى ..

فقال الملك :

– ومارأيك فى الزواج منها ..

برترام :

– أوافق من كل قلبى يا مولاى ..

الملك :

– إذن .. أنس هيلين الحسناء الفاضلة ، وأبعث بأمارات حبك لمجدولين الجميلة (ابنة لافيه) .. وليكن زفافكما قريبا حتى تسعد هذه السيدة ..

وأشار إلى الكونتسة التى قالت :

– ليجعل الله هذا الزواج أسعد من الأول .

أما لافيه فقد تهلل وجهه فرحا وصاح ببرترام :

– هلم يابرترام وقدم لعروسك رمز حبك لها ..

تقدم برترام إلى حيث كانت مجدولين ابنة لافيه تجلس .. أنحنى أمامها

وخلع من أصبعه خاتما قدمه لها .. ولكن الملك صاح فجأة .

– بحق الله .. لقد كان هذا الخاتم فى أصبع هيلين .

لكن برترام أجابه فى أدب :

– لم يكن خاتمها يا مولاى .

فأمر الملك برترام بأن يعطيه الخاتم ، فلما فعل ، أخذ يتأمله جيدا ، ثم أدخله فى أصبعه ولما دخل الخاتم قال بغضب :

– هذا خاتمي وكنت قد أعطيته لهيلين .. كيف أستطعت أن تحرمها منه ؟..

فقال برترام مدافعا :

– لم يكن هذا الخاتم يوما خاتمها .

ولكن الكونتسة الصادقة قالت :

– لا يابرترام .. فقد رأيت هيلين ترتدى هذا الخاتم .

وقال لافيه :

– وأنا أيضا .

كان لزاما فى هذه الحالة أن يقص برترام على الملك وحاشيته قصة هذا الخاتم وكيفيه وصوله إليه ..

قال برترام :

–لقد حصلت على هذا الخاتم فى فلورنسا ، أعطتنى إياه فتاه فلورنسية

صاح الملك بغضب :

-أنت تكذب ياملعون .. كيف سلبتها إياه !؟.. هيلين المسكينة .. كيف فعلت بها هذا ..؟.. ولكن .. لنتروى ونبحث فى الأمر .. ثم نرى فيه حكمنا العادل .

ودخل شريف فى هذه اللحظة على الملك قائلا :

– مولاى العظيم .. لقد قابلت فى الخارج امرأة فلورنسية سألتنى أن أعطيك هذا الكتاب وقد قالت أن فى هذا الكتاب مايهم جلالتك شخصيا .

تناول الملك الكتاب من يد الشريف ، وسعل وأخذ فى قراءته بصوت مسموع لكل الحاضرين .

" لقد وعدنى الكونت روسيون بالزواج بعد وفاة زوجته .. ولكنه حنث فى عهوده ، ونال من شرفى بخداعه .. ثم غادر فلورنسا متسللا دون وداع أو أستئذان ولقد جئت فى أثره أطلب العدالة من سموكم فأمنحنى إياها كى لا يصبح الكاذب كريما ، ويهدر شرف فتاة مسكينة .

ديانا" .

صاح لافيه بمجرد أن انتهى الملك القراءة

أنى لأفضل أن أشتري لأبنتى زوجا من السوق وأبيع هذا المخادع وأشار إلى برترام الذى وقف ساكتا لايبدى حراكا .

فقال الملك معلقا ، لقد انقذ الله ابنتك من هذا النذل يالافيه .

ثم تحول إلى الكونتسة وأضاف :

– أخشى ياسيدتى أن يكون موت هيلين قد تم بفعل فاعل .

فأجابته الكونتسة بشجاعة :

لتأخذ العدالة مجراها ، ويلقى الآثم جزاءه ..

ثم أمر الملك باستدعاء صاحبة الكتاب ، فدخلت ديانا تتبعها والدتها الأرملة .. وتقدمت إلى حيث كان الملك جالسا ، وقالت ديانا جاثيه :

– أنا يامولاي فلورنسية تعيسة الحظ .. وقد شرحت شكواي في كتابي وأضافت الأرملة قائلة :

– وأنا أمها، وقد أسئ الى سني وشرفي .

صاح الملك بغضب :

– تقدم يابرترام .. هل تعرف هاتين المرأتين ؟..

فقال برترام وهو ينظر إلى ديانا بأستغراب .

– لا أستطيع أن أنكر معرفتي بهما يا مولاي .

وأقتربت ديانا منه قائلة :

– لماذا تنظر إلى زوجتك باستغراب ؟.

فأجابها برترام وهو يبتعد عنها :

– أنت لست زوجتي ..

فصاحت ديانا وهي تدور ببصرها في الحاضرين .

– إذن .. أنت تزوجت بعدي .

فقال برترام :

– لا تصدقها يامولاي .. أنها فتاة حمقاء كنت ألهو بها وأعبث .

ديانا :

- أسأله يا مولاى .. ألم أكن عذراء حين ضاجعنى !!؟.

فسأله الملك .. ماقولك ؟..

أجاب برترام بحدة :

- انها وقحة يامولاى .. كانت ألعوبة لكل رجال المعسكر .

- لم تتكلم ديانا ، بل رفعت يدها عاليه .. وأخذت تدور مقتربه من كل الحاضرين .. ثم قالت :

- أنا ألعوبة لكل الرجال ، حسنا .. أنظر يامولاى ، وانظروا ياسادة ماذا أعطى الكونت للألعوبة .. أنظروا إلى هذا الخاتم الثمين الذى وهبنى اياه كدليل حبه وعهده بالزواج بى .

صاحت الكونتسة عندما وقع بصرها على الخاتم :

- يا الهى .. خاتم العائلة .

ثم وجهت حديثها للملك قائلة :

- إن هذه الفتاة صادقة يا مولاى .. هى فعلا زوجة أبنى ودليلها الذى لا يقبل الشك ذلك الخاتم الذى توارثته ستة أجيال متعاقبه .

لكن برترام أخذ يصيح :

- أنها تكذب يا مولاى .. هذه الفتاة كاذبة يا أمى .. لقد راقتنى هذه المرأة .. وكنت مستسلما لإرادتها حين خدعتنى وطلبت منى هذا الخاتم .

فقالت ديانا ببرود ..

- أنت لا تأتى بجديد ، فقد سبق وأن أنكرت زوجتك الأولى وها أنت تفعل

بالثانية ..

ثم سكتت فجأة ، وأخذت تتأمله فى أحتقار .. وعادت تقول :

– ولكن .. مادمت تنكر ، فلن أكون لك زوجة .. أعطنى خاتمى ، وسأعطيك خاتمك .

فقال الملك مندهشا : وما هو خاتمك ..؟..

أشارت ديانا إلى يد الملك قائلة :

–أنه يشبه ذلك الخاتم الذى فى أصبعك يامولاى .

فصاح الملك بها :

– كاذبة .. لم يكن هذا الخاتم ملكا لك يوما .. بل كان ملكا لهيلين التى أعطيتها أياه .

فقالت ديانا بأصرار :

– أنه خاتمى كما هو زوجى يا مولاى .. وعندى شاهد بذلك ..

سألها الملك بدهشة :

– شاهد !! .ومن هو ..؟..

أجابت ديانا :

–رجل يدعى بارولس .. كان تابع الكونت ورفيقه .

فصاح الملك :

– فليحضر بارولس هذا فورا .. أبحثوا عنه فى كل مكان ..

ثم تحول إلى ديانا وأضاف :

– لو كنت تكذبين .. فالموت مصيرك .

فقالت ديانا :

–لو كنت أكذب .

وما هى إلا لحظات حتى دخل بارولس .

وصاح برترام حين لمحه :

– بارولس .. ياللمأساة هل سيشهد هذا الخائن فى مثل هذا الأمر .

تقدم بارولس متطلعا إلى الحاضرين الذين ظهرت على وجوههم علامات الأشمئزاز والسخرية حين دخوله .

وانحنى أمام الملك الذى سأله :

– أخبرنى ياهذا !؟.. وإياك والكذب .. ماذا تعرف عن سيدك الكونت وعن هذه المرأه .

فقال بارولس :

– أننى رجل فقير .. وسأقول ما أعرفه .. لقد كنت وسيطا بين هذه السيدة ، وسيدى الكونت ، وقد علمت أنه ضاجعها وأنه وعدها بالزواج .

فقال الملك بأحتقار :

– تنح جانبا .. إذا كان هذا كل ما تعرفه .

ثم عاد يقول لديانا :

– أتقولين أن هذا الخاتم خاتمك ..

ديانا :

- نعم يا مولاى .

فصاح الملك .

- تكذبين مرة أخرى .. لقد أعطيت زوجته الأولى هذا الخاتم بنفسى .. فأن لم تقرى بالحقيقة .. أطحت برأسك ..

ولكن ديانا عادت تقول :

- هذا خاتمي .. ومعى فى الخارج صانع الجواهر الذى أخذته منه .. ثم خاطبت أمها الأرملة قائلة .

-أماه العزيزه أحضرى الجوهرى .

خرجت الأرملة .. ثم عادت بعد قليل ومعها هيلين .. التى ما أن رآها الحاضرون حتى صاحوا فى دهشة .. حتى الملك صرخ قائلا :

- وى .. هل حقا ما أراه .. هيلين .. أنت حية يا ابنتى .. وراحت الكونتسة تصرخ فى هيسترية : هيلين .. هيلين .

وتقدمت هيلين إلى حيث كان برترام واقفا ينظر إليها فى دهشة ، وعلى وجهه آلاف من الأسئلة ..

قالت هيلين : مولاى العظيم .. أنا لم أمت وها أنا أمامك أنبض بالحياة

فقال الملك متعجبا ..؟.. الجميع يعرف بموتك ..

فقالت هيلين :

-إنها قصة طويلة يا مولاى .. وقبل أن أرويها .. فلتسمح لى بالحديث مع زوجى .. الكونت روسيون .

فلما أذن لها الملك .. تقدمت إلى برترام وقالت :

- أواه يا مولاى الكريم .. لقد كنت عطوفا ودودا إلى أبعد الحدود حين كنت بديلة تلك الفتاة الفلورنسية الطاهرة ، هاهو خاتمك وها هو كتابك .. أتذكر ما كتبته فيه .

ثم أخذت تتلو مضمونه الذى تحفظه عن ظهر قلب :

" إذا استطعت أن تظفرى بالخاتم الذى فى أصبعى والذى لن يخرج منه أبدا وإذا أمكنك أن تأتى بولد من أحشائك وأصلابى .. فلتسمنى يومئذ لك زوجا وإلا فلا وإلى الأبد !!.

ثم عادت تخاطبه قائلا :

لقد تحقق لك ماطلبت .. سلبتك خاتمك ، وولدك الذى من صلبك داخل أحشائى الآن .

ثم سألته وهى تبتسم :

- فهل أنت لى الآن .

أجابها برترام :

- نعم .. أنت لى .وأنا لك .

وأسرع يضمها بين أحضانه وسط تهليلات الجميع وصرخاتهم ..

أما الملك فقد أخذ يقول :

- عادت هيلين .. وعاد لها برترام زوجا محبا .. وأنا لا أفهم شيئا من الموضوع كله .

فلتشرحي لي يا هيلين قصتك .. وأنت أيتها الفتاة الفلورنسية الطاهرة ..
لقد ضربت أحسن الأمثال في الحذق والبراعة .. كل ما يهمني الآن أن
أرى السعادة على وجوه الجميع .

كل ما جرى كان خيرا .. والعبرة بالخواتيم .

★★★

(تمت)

تنبيه

لا ينبغى أن يغيب عن ذهن القاريء المسلم ان أحداث هذه الرواية تجرى فى مكان تقاس فيه الفضيلة و الرذيلة بمقاييس بعيدة عن المفاهيم و التقاليد الاسلامية و التى يجب أن نتمسك بها ما حيينا و نحن إذ نفتح له نافذة على أدب الغرب نطالبه بالحرص .

فمن الهواء ما يحمل الصحة و من الهواء أيضاً ما يحمل المرض .

* * *

@ www.in touch . Marouf . Com

مكتبة معروف

الإسكندرية : ٨٢٨ - ٨١ - ٤/ ٤٨٤٦١١٢٥ فاكس

القاهرة : ٢٦١١٢٢٩ ص.ب ٧٠

الموزعون

بالمملكة العربية السعودية

مكتبة دار الشعب

ت : ٤١١١٢٠٧ الرياض